
الوَسْواس الخنّاس
أحداث مِصر فى عِشرين عامًا
بقلم الدكتور ابراهيم عبده

الوَسواس الخنّاس

الطبعة الثالثة

ديسمبر ـ كانون أول ـ ١٩٧٤

الغلاف : بريشة الفنان مصطفى حسين

الوَسْواس الخنّاس

أحداث مِصر فى عِشرين عامًا

بقلم الدكتور ابراهيم عبده

دار الشروق

سجل العرب
للطبع والنشر والتوزيع

إهداء

هي إلى جانبي قرأت أو كتبت ...

هي التي حفظت بقية نفسي حين ضاع بعض نفسي بفقد ولدي الشهيد ....

هي عزائي في محنتي التي عز فيها العزاء ...

هي التي أراد الله أن يحسن بها ختامي ...

هي صديقتي الحبيبة التي استعدت بها صفاء ذهني وهدوء قلبي وراحة ضميري ...

ليس غير زوجتي أحد يستحق أن أهدي إليه هذا الكتاب .

ابراهيم عبده

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ظن بعض من قرأ كتابي « رسائل من نفاقستان » أنه صادر من قلب مقروح أو ممرور ، وأنني لا بد أن أكون واحداً ممن زجوا به في سجن أو معتقل ، أو فرضوا عليه الحراسة وصادروا أمواله . فنفَّس عن نفسه بذلك الكتاب .

وبعض الظن إثم . فأنا وصحبي كنا في مجالسنا نبشر بالثورة ونرجوها منذ أكثر من ثلاثين عاماً . وبعض هؤلاء الصحب أحياء يرزقون ، ومنهم وزراء عملوا مع الثورة منذ قيامها ، ومنهم مراكز قوى طيبة صالحة كانت قريبة جداً من الرئيس جمال عبد الناصر .

وكنت أحاضر ــ وأنا أستاذ شاب ــ في معهد الصحافة بجامعة القاهرة ، وكان تاريخ الصحافة المصرية مادتي الأصيلة التي أدرسها لتلاميذي في ذلك المعهد ، وكان من بين تلاميذي عسكريون شغلوا مناصب الوزراء بعد ثورة ٢٣ يوليو بسنوات ، بعضهم تخرج في المعهد قبل الثورة ، وبعضهم انتظم لعدة أسابيع وشهور بعد قيامها ، وحالت مسؤولياته دون المضي في الدراسة ، ومن بين هؤلاء التلاميذ الذين قطعوا الشوط معي ونالوا دبلوم المعهد الأستاذ يوسف السباعي والدكتور ثروت عكاشة ، ثم وزير للإعلام

ورئيس مرموق لم تسعفهما المسؤوليات للاستمرار في الدراسة ، وقد استمع هؤلاء جميعاً لمحاضراتي وأنا أتحدث عن متاعب الصحافة أيام الخديـو إسماعيل ، وصورت عهده في عبارة كان لها في تاريخي تاريخ ... فقد زعمت أن هذا الخديـو « كان ضرورة لمصر بخيره وشره » ...

وقبل الثورة بست سنوات كانت للملك عيون في قاعة المحاضرات ، فنقلت إليه عبارتي بأن جده كان ضرورة لمصر بخيره وشره ، وقامت الدنيا وقعدت ، إذ كيف يكون في جد الملك شر ؟

وصدر أمر بنقلي من الجامعة إلى وزارة المعارف ، وإن كان ذلك مخالفاً لحصانة هيئة التدريس التي لا يجوز نقل عضو منها بغير تأديب .

وقد أبيت تنفيذ هذا الأمر شهوراً عدة ، ولجأت إلى جريدة البلاغ أهاجم الوزير الذي نقلني ، ورجال القصر الذين أبلغوا الملك عبارتي ، وأهدد بإقامة الدعوى أمام مجلس الدولة ـ وكان قد أنشئ من عهد قريب ـ ولم يطل تغيبي عن الجامعة ، وعدت إليها ، وعدت إلى محاضرة تلاميذي مؤكداً أن إسماعيل كان ضرورة لمصر بخيره وشره ، مستنداً إلى حرية البحث التي تفقد الجامعة اعتبارها إن خشي هذه الحرية معلموها وأساتذتها .

وقد رددت هذه العبارة في إحدى محاضراتي بعد قيام الثورة ، ويبدو أنه كانت للثورة عيون أيضاً في قاعة المحاضرات فساءها أن يكون لإسماعيل خير في تاريخ مصر ؟ : وكانت عبارتي تلك ضمن خلفيات فصلي من الجامعة [1] .

---

(١) حكم مجلس الدولة لصالحي في حكمه المشهور يناير سنة ١٩٥٧ الذي دمغ قرار فصلي بالتعسف ، ومنذ عدة شهور رد لي حقوقي كاملة القانون رقم ٥١ لسنة ١٩٧٤ الخاص بإعادة أساتذة الجامعات المفصولين عن غير الطريق التأديبي إلى وظائفهم .

ورب ضارة نافعة ، فإن هذه العبارة كانت لعنة حلوة ! إذ تفتحت أبواب الرزق أمامي بعد فصلي من الجامعة ، وعُرضت عليّ الأستاذية في جامعات عالمية ، ففضلت العمل في بعض بلاد الوطن العربي ، ثم عدت إلى مصر بلدي الحبيب ، وأنشأت داراً لنشر الثقافة على أوسع نطاق ، وجاء يوم ضممت فيه إلى هذه الدار نحو ثلاثين أستاذاً جامعياً من زملائي ليصدروا معي الكتب والموسوعات ، وبعد أن كنت رجلاً منتجاً في مصر وحدها ، انتقل إنتاجي إلى العالم العربي كله ، وإلى سائر بلاد المسلمين ، بل إلى غيرها من قارات العالم .

وفي الحالين ، عند نقلي من الجامعة أيام الملك ، وعند فصلي منها في أيام الثورة ، كان ضميري راضياً مستريحاً ، فذلك واجب الأستاذ حين يعلم ، لا ينافق ولا يداري ، ولا يوظف التاريخ لخدمة حاكم أو طاغية ، مهما يكن عنده من ذهب أو رتب أو نياشين ، أو مهما تكن في يمينه سيوف طوال يهدد بها الرقاب ...

وعندما قامت ثورتنا في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ـ وكنت إذ ذاك في زيارة لدراسة دور الصحف ومراكز الإعلام في الولايات المتحدة بدعوة من مؤسسة علمية ـ عقدت المؤتمرات متحدثاً باسم هذه الثورة وداعياً لها ، ونشرت جريدة الأهرام ذلك كله في حينه ، فلما عدت إلى مصر ، وجدت الناس يستبطئون ما وعد بتنفيذه العهد الجديد ، فكتبت مقالاً في جريدة الأخبار بعنوان (الصبر يا أهل الصبر) أطلب إلى مواطني أن ينتظروا ولو عشرين شهراً ليروا النتائج الطيبة التي من أجلها ثار الجيش ، وذكرتهم ساخراً بأنهم عاشوا عشرين عاماً دون شكوى أو تبرم يعملون ليلاً ونهاراً في بناء الهرم الأكبر ليوسّد فيه ملكهم عبر الأجيال والقرون ؟

وإذن فأنا وصحبي ثوار قبل الثورة بسنوات وسنوات ، فلما سيطرت « السلبيات » وتنافر المضمون مع المفهوم كما يقول إخواننا أهل اليسار ! وسيطر المتخلفون ونُحِّيَ النبهاء ، واختفت النخبة الواعية وبرزت الطغمة

الباغية ، وأخذت معاول الهدم تدق في صروح العدل ، شعرت وكأن هذه المعاول تدك رأسي وتحطم قلبي ، خرجت من مصر إلى السعودية ثم إلى الكويت سنوات عدة ، وبذلك أَفْلَتُّ من السجون والمعتقلات ، ولم يكن عندي مال أو عقار حتي تطبق عليَّ قوانين الحراسات ، بيْد أن الهموم اعتصرتني في غربتي وأنا أسمع أن فلاناً قد سجنوه أو اعتقلوه أو عذبوه أو عبثوا بمحرماته ثم أجاعوه حتى مد يده للسؤال ، أو أراحوه فشنقوه بعد أن مر بكل هذا العذاب ! .. وفلان هذا إن لم يكن من أهلي أو صحبي أو جيرتي ، فهو من مواطنيَّ ، وما استحق أن يعيش من لا يحس آلام مواطنيه من صرعى وشهداء .

بهذه الروح كتبت «رسائل من نفاقستان» وهدفي أن نعتبر بما سجلت ، فلا تعود بلادنا مرة أخرى إلى هذا الهول من المآسي والأحزان ، وحتى يستيقظ ضمير الشعب فيتصدى للمحاولة إن أرادها طغاة آخرون ، وإن كنت مطمئناً إلى أن أحداً لن يجرؤ على شيء من هذا ونحن نعيش في عصر سيادة القانون الذي دعمته دماء شهدائنا من أولادنا وإخوتنا الذين اقتحموا القناة ورفعوا أعلام النصر التي كانت منكسة قرابة مائة وثلاثين عاماً .

أما بعد فهذا هو الكتاب الثاني الذي أكتبه بنفس الروح ، وبنفس الأسلوب ، وللغاية نفسها التي كتبت من أجلها الكتاب الأول دون أن أرتبط في ذكر الحوادث والوقائع بترتيب ، أو ألتزم بوثيقة ، فكل ما سجلته يعرفه المصريون ، فهم إما عاشوه بأنفسهم ، أو شاهدوه في قريب أو صديق ، أو تندروا به في مجالسهم الخاصة ، أو كتموه حتى لا يعيشوا وراء الأفق .

وكلا الكتابين مقدمة لِسِفْر كبير سأتوفر على إعداده ليصدر في

العيد الفضي لثورتنا المجيدة ، على نحو ما كتبت من دراسات علمية موثقة ، وأرجو أن يكرمني ربي فأجد من العمر والصحة ما يحقق لي هذا الأمل المرموق ، والله ولي التوفيق .

مزرعة رندة
في أول سبتمبر ١٩٧٤

إبراهيم عبده

القاهرة في أول يناير

عزيزي تَعِسْيان ..

أدبرت بالأمس سنة ، هي العمر في سنة ...

لقد أمضينا قبلها سبع سنوات عجاف ، عشنا في معظمها نحن الأحرار ، ونصفنا في السجون والمعتقلات ، ونصفنا الآخر أصيبت أذنه بالصمم فلم يسمع ، وألجم لسانه فعجز عن الكلام ، وعميت عينه فلم تر ، وعاش حياته الرتيبة فاقد الحس والوجدان .....

أراد النصف الآخر لنفسه كل هذا الهوان خشية أصحاب الهزيمة والعار ، فإن جريرتهم لم تخفف من كوامن الشر فيهم ، بل زادهم النحس عتواً وجبروتاً ، وزادتهم النكسة ــ وهو منهم تدليل سمج لوصف الهزيمة ــ غلواً في العنف والقسوة ، كأننا كنا نحن هيئة الأركان التي خططت للكر والفر ، بل خططت للفر وحده ! فوضعوا همهم فينا ، وأصبحنا نحن موضع السؤال ؟ .

نعم . أدبرت بالأمس سنة هي العمر في سنة ...

لقد طالت فيها رقابنا ، وشمخت أنوفنا ، وأخذنا ندب على الأررض كما يدب الأحرار من الأحياء ، فقد غسلنا الهزيمة ومحونا العار ، وارتسمت البسمة على شفاه المصريين والعرب ، وكانت بسمة المصريين عريضة واضحة ، فهم قد حاربوا بإيمان ، وبذلوا بسخاء ، وحطموا الأوهام بعد أن حطموا الأوثان ..

عادت إليهم الروح لما خلت منهم السجون والمعتقلات ، بل أغلقت السجون وصفيت المعتقلات ، وبقيت أبنيتها فارغة إلا من ذكريات دفن الخصوم أحياء ، أو دس السم لهم في طعام أو شراب ، أو ثلم الأظافر ونفخ البطون وفقء العيون ونهش الكلاب ، وتسليط الكهرباء على أبدان

المفكرين والعلماء أو على المواقع الحساسة من أبدانهم التي نزَّت بالصديد من عنف العصا والكرباج ، واغتصاب الزوجات والفتيات من أسر المجاهدين الذين كانت كل جرائمهم الشنعاء : مزحة قيلت في حاكم خطير ، أو نكتة أطلقت على مركز قوة حقير ، أو عبارة نقد هُمِس بها في مجلس خاص لقرار صدر أو إجراء اتخذ ، ونقلها واحد من جهازهم المقيت .

نعم . أدبرت بالأمس سنة هي العمر في سنة ....

فلن يقدر إنسان بعد اليوم أن يلي أمورنا مستبداً أو طاغياً ، فإن عشرات الألوف من أبنائنا وإخواننا الذين استشهدوا أو شوهوا بنوا لنا سداً منيعاً يحول بيننا وبين أي مد من الظلم والعسف ، ورفعوا لنا رايات الحرية لنتكلم ونكتب وننتقد ونوجه ونشير ونُستشار ، ونمحو بذلك « خطاً » كان الحاكم يسير عليه في زهو الطغاة وخيلاء الظالمين ، يحبس الكلمة في حلوقنا ، ويعتقل القلم في جيوبنا ، ويصادر الرأي في رءوسنا ، ويحدد نصيبنا من الشهيق والزفير ، وكان هذا دأبه يوم صور الهزائم نصراً ، وكان هذا حاله حتى حين ركع أمام عدونا الصغير الذي أدبناه في سنة الأمس بعد أن تنسمنا عبير الحرية ورفعت عنا القيود والأغلال ، واختفى من ضميرنا الوسواس الخناس .

لقد ضاع « الخط » بعد أن سالت عليه دماء شهدائنا فمحته محواً وبعد أن حررنا قناتنا وقذفنا بعدونا عبر الصحراء ، وخَفَت صوت المستفيدين من « خط » الماضي وإن كانت حشرجتهم تذكر بين آن وآخر ، في صفاقة ودون حياء ، أن « خط » طغاة الأمس هو « الخط » الذي ينبغي أن يسير عليه حكام اليوم ، وكأن دعاة هذا الخط في غيبوبة « سطلتهم الحشيشة » فلم يروا التغيير الجذري في أسلوب الحكم ، ولم يحسوا سيادة القانون ، ولم يعلموا بقرارات الإنصاف ، ولم يسمعوا بحرية القلم ، ولم يصل إليهم نبأ إغلاق السجون والمعتقلات ....

أي خط يريدون ؟ ألا بئس الخط ومخططوه ، ولعن الله الوسواس الخناس الذي رسمه ، وحيا الله تلك الدماء الزكية التي أزالته من حياتنا فانطلقت حياتنا في أضواء الحرية التي غُشيَتْ فيها أبصار البوم التي لا تعيش إلا في الظلام .

نعم . كانت سنة الأمس نعمت السنة ....

فقد ارتسمت البسمة العريضة أيضاً على شفاه إخواننا العرب ، وعاش جيلهم هذا « وحدة » كانت تتطلع إليها أجيال سابقة ، وكانوا معنا في سنتنا تلك ، استشهد منهم من استشهد ، سواء كان ذلك على تراب مصر أو تراب سوريا ، ووقف الأغنياء منهم موقف الرجولية المأثورة عن عرب الصحراء ، بما تضفيه عليهم الصحراء من صفاء النفس ، ودقة الحس ، وقوة القلب ، ورقة الحاشية ، ومروءة الفرسان .

لقد كانت الحرب حربهم ، وكان الجهاد جهادهم ، فبذلوا أموالهم بلا حساب ، ومن غير منٍّ ، ووظفوا نفطهم سلاحاً بجانب سلاحنا . وعاشوا أيام أكتوبر كما عشناها ، فإن السنوات السبع العجاف كانت لهم أيضاً سنوات عجافاً ، كانوا يخجلون فيها من ذكر عروبتهم التي دنس حرمتها وأسقط من اعتبارها ، دعاة الشعارات الفارغة الذين جعلوا العروبة مضغة في أفواه العالم ، واستغلوها استغلالاً رخيصاً ليبنوا عليها إمبراطوريتهم الموهومة ، فزعموا للعرب أنهم أقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط ، وأنهم يملكون من العتاد ما تَضْؤل أمامه القنابل الذرية ! وأنهم قادرون على أن يسقوا القوى العظمى المر والعلقم من هذا البحر أو ذاك ! وأنهم بإشارة من إصبعهم الخنصر يقذف بعدونا في اليم ، ونقتص بذلك لفرعون الذي أغرقه البحر يوم خرج بهم موسى تائهين في الصحراء ! ....

ثم قالوا للعرب ، إنهم في المنطقة أرباب العدالة الاجتماعية التي تفتقدها دول الشرق والغرب على السواء ، وأن نظام الحكم في مصر يجب

أن يسود بلادهم رضيت أو سخطت ، وإن لم يسد بالرضا ، فبالانقلابات والاغتيالات سوف يسود ، وعلى أبناء المنطقة أن يعوا ويهضموا هذا النظام المرموق ، ويجب أن تخرس ألسنتهم الحائرة في هذا النظام الاشتراكي الرأسمالي ، الديمقراطي الدكتاتوري ، الإسلامي الزندقي ، المنفتح المنغلق ، المحافظ المتطرف ، المحايد المنحاز .....

عليهم أن يؤمنوا بهذا النظام الرائد الذي لم يعرفه العالم منذ حضارة الفراعنة إلى حضارة القرن العشرين .

وكان العرب حائرين حتى نزلت بنا وبهم النازلة في سنة ١٩٦٧ ، فتبينوا قبلنا أن النظام الفريد في نوعه كان أكبر أكذوبة في التاريخ ، وأن دعاته وأحلاسه أكبر كذابين عرفهم التاريخ ! ....

عادت البسمة إلى شفاه العرب أجمعين حين بطل في مصر الباطل وصح الصحيح واستقامت الأمور في « أم الدنيا » إلى حد بعيد ، وصدق ولاة الأمر فينا حين وعدونا ووعدوهم بالنصر المبين ، وتحقق لنا ولهم ما وعدوا ، بقوة الإيمان الذي افتقدناه نحو عشرين عاماً .

(وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

صدق الله العظيم

القاهرة في ١٤ يناير

قرأت في الصحيفة الفرنسية التي أرسلتها لي مقال الكاتب الشيوعي الذي يطالب بمحاكمة ستالين لتفنيد ما أخذه عليه شانئوه من خصوم وأعداء ....

وحدثت نفسي : هل هذا الكاتب نصير عاقل أو مجنون ؟ كيف يطالب بمحاكمة زعيمه الذي أجمع الناس ، وفي مقدمتهم مواطنوه ، على أنه أسوأ حاكم عرفته روسيا في العصر الحديث ؟

قالوا إنه ــ أي ستالين ــ قتل من مواطنيه ملايين ... واستعبد ملايين ... وتفنن في أدوات التعذيب حتى ليضؤل عذاب جهنم إذا قيس بعذاب الناس على يد هذا الزعيم ، فكيف يأتي اليوم نصير ويدعو إلى محاكمته ، متحدياً كل ما نشر عن خطاياه التي عرته من هالات المجد وهوت به في أسفل سافلين ؟

يقول الكاتب الشيوعي إن ما ذكر عن ستالين ليس صحيحاً لا في جملته ولا في تفاصيله ، وإنه كان الأب الروحي لملايين الروس في روسيا ، وملايين الشيوعيين في أوربا وأمريكا والصين ، وإن محكمة عادلة تؤلف من قضاة عدول ستثبت أن الرجل كان زعيماً ونعم الزعيم ، ولم يكن يستحق كل هذا الهوان أو بعض هذا الهوان ، فيلطخ تاريخه ويُسفه نهجه ، ويقذف برفاته من مثواها الرفيع إلى غير مثوى معروف كما يحدث لرمم الكلاب حين تموت !

وحدثت نفسي : ألا يجوز أن يكون ستالين قديساً وأن خصومه شوهوا سيرته ليتمكنوا من رقاب ملايين الروس الذين حكمهم هذا الزعيم نحو أربعين عاماً ، وحقق لهم نصراً أسطورياً على غزاة بلاده من النازيين ؟

وأجابت نفسي بسماتها الطيبة : وأنت ... ألم تزعم في كتاب ،ودون حساب ، أو تحقيق ، أو ميزان ، أن مصر عاشت في السنوات العشرين الأخيرة حياة يملؤها الرعب ، تبارت في نشره مراكز القوى ! ورتبت

على جريرتها في نشر الذعر والخوف مسؤوليتها في هزيمة مصر هزيمة لم يعرفها جيل من أجيال السابقين ؟

وحرت مع نفسي . أصحيح ما زعمته أنا أم كذب ؟ أو لعل فيه مبالغة وأنا لا أدري ، فإني لم أسجن ولم أعتقل ولم يصادر لي مال ولم يتولني أحد بتعذيب ، وما كان ينبغي أن أنهج في الرواية هذا النهج وأصدر الأحكام وليس في يميني وثيقة أو دليل ...

وهتف في نفسي هاتف يقول : ولكن مظاهرات الشباب تلك التي قامت في العاصمة والمدن الكبيرة في سنة ١٩٦٨ ، وما نشر في ثورة التصحيح عن مآسي الوطن وفواجعه ، وعشرات الألوف الذين أخرجوا من السجون والمعتقلات وهؤلاء الناس الذين ردت إليهم حقوقهم التي اغتصبها عهد بغيض ، وعودة كثير من الموظفين المفصولين إلى وظائفهم ... أليس وراء كل هذه الأحداث خبيء ! أليست كل هذه الأحداث دليلاً واضحاً ساطعاً على أن الوطن كان في محنة وأن امتحانه طال سنين وسنين !

وهذه الكتب والمقالات التي نشرها كبار الضباط الذين كانوا في مواقع المسؤولية في حرب ١٩٦٧ ، ألا تشير إلى مواطن الفجيعة وأسباب الهزيمة ، وتتحدث في صراحة ، وتتهم في وضوح فكيف تعيب عليَّ نفسي حديثي عن الهزيمة وأصحابها ، وحملتي على الخونة الذين لوثوا سمعة مصر ، وأزروا بكرامتها وحطوا من قدرها ؟

وأجابت نفسي بسماتها الطيبة : وهل فهمت شيئاً مما نشر من كتب ومقالات ؟ ألم يتهم سلاح الطيران سلاح المهندسين ؟ ألم يتهم سلاح المهندسين سلاح المدرعات ؟ ألم يتهم سلاح المدرعات سلاح الإشارة ؟ ألم يمسك زيد بتلابيب عمرو ؟ .

ومصر الجريحة ترى هذا كله ، وتقرأ هذا كله والدموع الذوارف تفيض من عينيها ، فهي لا تعرف أين مكان الصدق فيما ترى وتقرأ ،

وفيما يلقى إليها من بيانات ، ولا تدري اين الحقيقة فيما يقال ويشاع ؟

وتتساءل مصر ، كيف يُنتهك شرفها بهذا اليسر ومن غير مبالاة دون الثأر ممن استباح حرمتها ، فلا يحاسب من ضيع هذا الشرف في عهد اتسم بسيادة القانون ؟

وتتساءل مصر : من المسؤول عن سجن نخبة من ضباطنا الأكفاء بعد هزيمة ١٩٦٧ بينما رقي ودلل من كان سبباً في الهزيمة والعار ؟ تلك النخبة من الضباط الذين أطلق سراحهم قبل أكتوبر ، فكانوا ثريات ذلك الشهر ونجومه ، وحاربوا واستشهدوا أو شوهوا وحققوا النصر بقلب مؤمن بوطنه بالرغم من المآسي التي عاشوها في هذا الوطن بين المعتقلات والسجون .

لقد فعلت مراكز القوى كـل ذلك ... ولكن مراكز القوى تلك ! من يمثلها ؟ ومن هم ؟ وهل صحيح كل ما نسب إليها ، أو صحيح ما يدعونه هم من أنهم برآء مما قيل عنهم ، وأن المسؤول الذي يجب أن يسأل لم يذكر على لسان أحد ، وإن ذكر عفواً أو عمداً أقامت فلول الأنصار الدنيا ولم يقعدوها ، لا في مصر وحدها بل في بلاد أخرى حيث أنشئت صحف ومولت لتحمي ذكراه ، وتهاجم الزعيم الذي جاء من بعده ينشر العدالة ويرفع الحيف عن الأمة التي عاش أفرادها عبيداً أو كالعبيد قرابة خمسة عشر عاماً أو يزيد ، ثم قادها إلى مواقع النصر وهو حدث فجر حقد الحاقدين فمولوا الفلول الوضيعة بالسلاح ، والصحف الحقيرة بالمال ، عسى أن ينالوا من صناع المجد ونسوا أن العنقاء لا تُنال بملايين السفهاء ، أو بالبخر ينطلق من أفواههم أكاذيب وترهات ، أو بإذاعات الليل تستجدي الأسماع كبنات الهوى يلتمسن الرذيلة في دياجير الظلام ؟ ! .

قالت نفسي : ومن يدري أنهم كذابون ، وأنهم وحدهم المسؤولون ، ثم قالت ـ أي نفسي ـ وكيف يستمتع بالحرية في عصر سيادة القانون

أولئك الذين عذبوا المواطنين وقتلوهم ودفنوا بعضهم أحياء أو ألقوا بخصومهم في مشافي الأمراض العقلية سنوات حتى حولوا العقلاء فعلاً إلى مجانين ؟

وإذا كانت قلة من هؤلاء الطغاة اليوم في السجون ، فإنهم فيها لجريرة أخرى ، ولم يُحاسبوا بعد ، هم وغيرهم ، على ما حكيناه عن بعض جرائمهم التي صنعوها ، فضلاً عما كان لهم من نصيب في إفساد الأخلاق وارتكاب المعاصي ، واستغلال النفوذ بالرُّشا والسرقات .

وإذا كان الذي قتل الأحرار ، أو عذب المواطنين ، أو دفنهم أحياء ، أو حول العقلاء منهم إلى مجانين ، أو سجن الضباط الأكفاء ، قد لقي جزاءً طيباً في عهد مضى يوم كان القانون في إجازة ، فإن سراحه المطلق يفسد اليوم معنى سيادة القانون ، لأن القانون بذلك يكون قانوناً منحازاً ، وسيادته مفروضة على كل الناس إلا أصحاب السيادة القتلة الظلمة المرتشين ، المطلق سراحهم وبعضهم لا يزالون في وظائف القمة أو كانوا في وظائف القمة إلى عهد قريب ، يرتعون ويمرحون ، وضحاياهم خرجوا من السجون محطمين من آلات التعذيب ، أو لعل كثيراً منهم قتل في السجون والناس لا يعلمون ....

يسود القانون فيطارد السارق العادي ليحاكم وينال الجزاء ، أما السَفَّاح فطلق السراح ، يستمتع بأعلى معاش غير ما حصل عليه من مال حرام ، ويحمل جواز سفر خاص ، وتفتح له الأبواب في كل مكان !

صحيح أن زعيم البلاد يريد مجتمعاً يسوده الحب ، وهو يطب لجراح الناس كل الناس ، سواء كانت جراحهم نتيجة لسلبيات الثورة ، أو حدثت جراحهم حتى قبل هذه الثورة بسنوات ، بيْدَ أن مجتمع الحب لا يمكن أن يصفو إلا أن تأخذ العدالة مجراها ، حتى يقوم المجتمع على أسس خالية من الأوجاع ، وحتى يتأكد مجتمع الحب أن مجتمع البغضاء لن يعود ، بعد أن تصفى أدران الماضي ويعرف الناس من الظالم ومن المظلوم .

وتسألني نفسي : وكيف تريد هذه التصفية دون أن ينتج عنها حساب وعقاب ؟ وأجيب أني أريد حساب الظالمين وأريد لهم أشد العقوبات ، ليكونوا عبرة لمن لا يعتبر ، وحتى لا تعود مصر إلى ذلك الليل البهيم ، وبذلك تنسى العذاب الذي عاشته جيلاً ، وتقتص من هؤلاء المجرمين لانحرافهم بالثورة عن مسيرة الأحرار ، وتحويل المواطنين إلى شعب من عبيد ، ثم تقتص منهم للهزيمة التي وضعت أنوفنا في التراب .

وتسألني نفسي : وكيف تريد أن ينصب ميزان الحساب ؟ فأجيب : يا نفسي ، إن في البلد قانوناً ، وإننا في عصر لا يسود فيه إلا هذا القانون ، ونحن قوم قلوبنا كبيرة ونكره أن يظلمنا أحد أو نظلم أحداً ، وقد شهَّرنا بقوم زعمنا أنهم ارتكبوا من المظالم ما يشيب لهولها الولدان ، ونريد أن نعرف هل هم المسؤولون أو غيرهم هو الجدير بالسؤال ؟

وكي نحقق العدالة ما علينا إلا أن يجلس قضاة ومستشارون في أكثر من محكمة ، يمثل أمامها من اتهم بقتل المواطنين أو سجنهم ظلماً ، أو تعذيبهم في السجون ، أو أولئك الذين استغلوا الثورة والسلطان فأثروا بمال حرام ، أو أولئك المسؤولون عن الهزيمة والعار .

يمثل أمام هذه المحاكم كل هؤلاء ، سواء منهم الأحياء أو الأموات ، سواء منهم من في السجون أو الطلقاء ، فمن تثبت جريمته من الأحياء خذوه فغلوه ، ومن حق عليه العقاب من الأموات ، لا أقول أقذفوا برفاته كما فعل الروس بزعيمهم ستالين ، فذلك أسلوب لا يرضى عنه الخلق والدين ، بل اسمحوا على الأقل بنشر الحكم على الناس ، حتى يستقيم مجرى التاريخ ، فلا تقام بعد ذلك لظالم قبة ، ولا يكون لمفتر ضريح ومزار !

القاهرة في ٢ فبراير

قرأت كتاباً ممتعاً طبع ووزع في مصر ، علامة على انفتاح الرأي ، وإصغاء بالمودة لورقة أكتوبر ، وتأكيداً أو قل تمكيناً لتطبيق الدستور الذي كفل حرية القلم ، ألفته الدكتورة نعمات فؤاد ، وتطالب فيه بكتابة التاريخ من جديد .

ولو اشتركت مع المؤلفة في هذا الكتاب ، لطالبت بإعادة كتابة التربية الوطنية ، والجغرافيا ، والحساب ، والنحو ، من جديد ... فإن هذه المواد جميعاً طوِّعت لتأييد نظام وحكومة ، وتربية النشء على الإيمان فقط بهذا النظام وتلك الحكومة ، حتى يشبوا وليس في الدنيا إلا هذا الذي تعلموه .

ولست فيما أقول وأسجل مبالغاً أو ساخراً أو أكذب كغيري على التاريخ ، فقد كنا ندرس لأولادنا اللغة العربية من خلال آيات من القرآن الكريم وبعض الأحاديث الشريفة ثم نقدم لهم نماذج من أقوال الخلفاء الراشدين ، ثم أبياتاً من شعر الحماسة لشاعر قديم أو حديث ، فإذا الكتب التي توزع عليهم ، أو كانت توزع عليهم ، تكاد تخلو من هذا كله ولا تسجل إلا مقتطفات من خطب بعض القادة السياسيين ، ومنهم واحد سئل بعد قيام الثورة بعدة شهور عن الكتاب الذي أثر فيه ، فقال : القراءة الرشيدة ، والقراءة الرشيدة ، إن لم يكن يعرف الجيل ، كتاب كان مقرراً على تلاميذ المدارس الابتدائية في ذلك الحين ؟ !

ومن بلاء الزمن أن الذي كان كل حصيلته من المعرفة ، وأصالته في الفهم والتمييز كتاب القراءة الرشيدة ، قـد أسند إليه الإشراف على تطهير الجامعات من الكسالى غير المنتجين ، فكان يجتمع بليل مع الأساتذة المتخلفين ، ويقرر وإياهم فصل الأكفاء من الأساتذة اللامعين ، ومنهم من له أكثر من ثلاثين مؤلفاً من أمهات الكتب والمراجع التي ترجم بعضها إلى

أكثر من لغـة، وهي على أي حال أعلى مرتبة من القراءة الرشيدة ، كتاب السيد السند الذي أثَّر فيه وبوأه مكان القيادة بين مواطنيه ؟ ! ..

ودرس التلاميذ جغرافية بلادهم من خلال سطور أقحمت تمجيداً لأبطال الثورة ، وتسجيلاً لمنجزاتهم من القطبين إلى خط الاستواء ! ولم تخل كتب الحساب للصغار من شيء كهذا ، أما النحو فعندي كتاب يزدحم بالدعاية الفجة التي لا يليق أن يكتبها معلم المفروض فيه أن يربي النشء على الصدق ويبصرهم بالحقيقة ويحميهم من كاذب الدعايات ! .

وأخطر الكتب كتاب نافق فيه المؤلف حتى بلغ درجة الكفر والإلحاد . وقد حمل هذا الكتاب عالم من علماء المسلمين في مصر إلى قصر عابدين ، وسلمه إلى كبير الأمناء ، محتجاً على صدور هذا المؤلف وتوزيعه على التلاميذ وفيه سؤال عن وجه الشبه بين محمد سيد العباد وبين زعيم كان يحكم هذه البلاد ؟ ! ! ..

إني أعلم يا صديقي الحبيب ، أن هذا الذي أعرض له في سبيله إلى التغيير والتعديل ، وأن المجلس القومي للتعليم سيحذف هذه الأدران من كتب التعليم ، وأن التاريخ سيكتب من جديد كما ينبغي أن يكتب التاريخ لا كما يطلب صحفي من أهل اليسار بأن يكتب بمقاييس الثورة تاريخ البلاد ...

ولست أدري كيف يريدون كتابة التاريخ بمقاييس الثورة ؟ فإننا بهذه المقاييس كما يراها اليساريون ، سنحذف من التاريخ أمجاد أصحاب الأمجاد منذ كان لمصر تاريخ ، فإن هذه المقاييس ربما تقدم رمسيس الثاني على تحتمس الثالث ، مع أن الأول هزم في حروب والثاني انتصر في كل الحروب ، وذلك تأسيساً على ما شهدنا في حرم مجلس الأمة يوم الهزيمة النكراء سنة ١٩٦٧ حين رقص أحد أعضاء هذا المجلس ونافس في ذلك راقصات مصر المبدعات في هز البطون والأرداف ، ودعم عار المجلس

وفضيحة العضو المحترم هذا الطبل والزمر في الشوارع والميادين ! وربما تمجد هذه المقاييس فعلة محمد على في مذبحة المماليك بالقلعة ، أسوة بإعجاب أهل اليسار في مصر بمذابح الأحرار المؤمنين ! ...

وبمقاييس الثورة كما يراها اليساريون ، سيذكر التاريخ شريف باشا بأسوأ ما يذكر به زعيم ، لأنه رفض التفريط في السودان واستقال حتى لا يوقع صكاً بهذا التفريط ، وسنشيد بمن ذهب إلى جنوب السودان ورقص عارياً كما ولدته أمه ، وبذل بسخاء السفهاء ثم عاد وفي جعبته الوثيقة التي فصلت مصر عن السودان ! .

وبمقاييس الثورة كما يراها أهل اليسار ، سوف يسقط اعتبار الزعيم الخالد سعد زغلول ، وهو أول من رأس وزارة مصر من ابناء الفلاحين ، لأنه لم يتخذ من الاغتيالات وسيلة لجهاده ، ولم يعتقل الاحرار من الخصوم إذا خالفوه في الرأي ، ولم يضع تحت الحراسة من قال مزحة فيه ، ولم يسط على أموال الناس ليحل عقدة حياته ، ولم يبح أعراضهم للزناة والفجرة من زملائه ومعاونيه . وبدأ الإصلاح الزراعي بأن وزع أرض الحكومة على صغار الفلاحين ، وسمح لخصومه أن ينقدوه بعنف حتى تطاولوا على عرضه وشرفه ووطنيته ، وهو من هو ؟

سعد زغلول

سعد زغلول الذي أحيا ميت الآمال ، واستطاع تحقيق ما عجز غاندي عن تحقيقه ، فوحد بين الأقباط والمسلمين . في حين فشل غاندي في توحيد المسلمين والبوذيين . ونفي مرتين ، وواجه بشجاعة الملك وبطانته ، وتحدى الانجليز وهم على رأس الأمم ، وفرض التعليم الإلزامي على أبناء الوطن ، وهيأ لإنشاء الجامعة ، وأرسل البعوث العلمية للخارج من أبناء العمال والفلاحين ، ولم يقصرها على أبناء الذوات كما كانوا يسمون الوجهاء الموسرين حملة الرتب في ذلك الزمان . وقد اعتز بما عيره به أصحاب

البيوتات من أمراء وإقطاعيين ، بأنه زعيم العمال الرعاع والفلاحين أصحاب الجلاليب الزرقاء ....

هذه الأسطورة تمثل رجلاً خائناً في مقاييس الثورة كما يراها اليساريون ...

إن أهل اليسار في مصر لا يريدون لمصر تاريخاً قبلهم ، مع أن الشيوعيين في روسيا لا يزالون يذكرون بالتمجيد في مؤلفاتهم عظماء القياصرة والأدباء والمفتنين ، ولا يزالون يحتفظون بتراثهم في متاحفهم ، وتماثيلهم في شوارعهم ، ولم يجدوا في ذلك خروجاً على الخط الذي رسمته ثورتهم الدامية التي كان من المتوقع أن تنكر كل قديم .

ولكنهم في روسيا قوم يعقلون ...

إني أحني الرأس تقديراً لكل من يخالفني في الرأي إن كان حقاً مؤمناً برأيه ، ويزيد اعتباره عندي كلما شد على رأيه وتمسك به ، على شريطة تكافؤ الفرص في كل حوار يقوم بيني وبينه ، فلا تكون له صحيفة وأنا لا أجد مثلها لأقارعه الحجة وأفند رأيه الفطير ، أو يكون صاحب سلطة وبيده سيف ومدفع وأنا ليس في يميني سوط . ولا نبوت !

لقد عشنا نحو عشرين عاماً نسمع أكثر ما نسمع طوفاناً من التهريج والأكاذيب ...

أقوالنا شيء وأفعالنا شيء آخر ...

لقد عينوا عاملاً وزيراً للعمال ، وهذه سنة طيبة وعمل عظيم ، وعقد الوزير اجتماعاً ضخماً دعا فيه العمال إلى توحيد زيهم في بزة (بدلة) من صنع بلادنا ، وأخذ يبين لهم محاسنها ، فهي من قماش صنع في مصر وهي زهيدة السعر جميلة المنظر ، ونظر العمال إلى زميلهم الوزير وهو يخطب ، فإذا بدلته من قماش صنع في إنجلترا ، وإذا رباط عنقه من نوع

« السولكا » وهو أغلى رباط عنق أنتجه الفرنسيون ، وإذا قدماه في « موكاسان » وهو من أبدع الأحذية التي صنعها الإيطاليون ؟ ! !

وقيل إن زعيماً ألم به المرض ، وهو صاحب مذهب أدنى إلى الشيوعية منه إلى الرأسمالية ، ووصف له الأطباء إداماً لعشائه هو الجبن ، وله أن يختار أي نوع من هذا الجبن ، ومنذ ذلك التاريخ والطائرات تحمل له في كل يوم اثنين من كل أسبوع خمسة وعشرين صنفاً من الجبن ! وسألت الراوية ولم لا ينقل له الجبن مرة واحدة في كل شهر أو في كل سنة ؟ فقال ـ والعهدة على راويتي ـ إن هذه الأصناف من الجبن تصنَّع مرة كل أسبوع ويبدو أن أصول العلاج تفرض أن يكون الجبن طازجاً لا يزيد عمره عن أسبوع ....

ثم ماذا ؟

يقول وزير الصناعة مفاخراً العالم إن عندنا ألف مصنع ، مع أنه لا يعمل من هذه المصانع إلا عشرة أو عشرون أو مائة مصنع على أحسن الفروض ، والمئات الباقية جدران أقيمت خالية من الآلات ، أو في بعضها آلات تنقصها الخبرة أو قطع الغيار ، أو هي وهم في الخيال أو مشروعات على الورق وليست مصانع على أي حال ! ...

ثم ماذا ؟

تدلي الحكومة بين آن وآخر بأنباء اكتشافات للبترول في بلادنا بلغت حصيلتها منذ قيام الثورة إلى يوم الهزيمة أكثر مما اكتشف من نفط في فنزويلا والمملكة العربية السعودية ومنطقة الخليج وروسيا والعراق وإيران ! وليس هذا من باب النكتة كما تظن يا صديقي العزيز ، فقد ذكر لي ذلك أستاذ جامعي من الأصدقاء خبراء البترول ، سجل ما نشرته الصحف من بيانات هذه الاكتشافات خلال أربعة عشر عاماً أو يزيد ؟ ! ....

أنا لا أكره أن يلبس وزير العمال أفخر الثياب ، ولا أبخل على زعيم له مقامه المقدور أن يتخير طعامه ويحصل عليه ما داما يملكان المال الحلال

الذي يمكنهما من الحياة على أي نحو يريدان ، فإن ذلك ـ في عقيدتي الدينية ومذهبي الاجتماعي ـ حق لهما لا ينبغي أن يعيبه عليهما أحد ، وإنما العيب أن تدعو إلى عمل أنت لا تؤمن به كما فعل العامل الوزير مع زملائه العمال ، أو كما نهج الزعيم المرموق نهج من عاب عليهم من جيل ما قبل الثورة الذي كان بعض سراته يستجلبون عشاءهم من مطعم مكسيم في باريس ! ففي مصر أيضاً أنواع من الجبن ، كثير صنفها ، طيب مذاقها ، وهي تناسب علاج كل داء !

وأفهم أن يكون للحكومة دعاة يبشرون بمنجزات الثورة ، وللثورة منجزات لا ينكرها أحد . أما أن يكذب الدعاة وهم وزراء ، فيزعمون أن عندنا من المصانع أكثر مما عند الإنجليز ؟ وأن أرضنا فجرت من النفط ما يزري بنفط العالم في أسخى مناطقه ! فتلك مصيبة ، وأمرّ منها أننا لم نكن نملك أن نحاسب هؤلاء الوزراء على ما قالوا ، ولا تلك الصحف على ما نشرت ، فلم يكن في البلد مؤسسة دستورية لها شأن تملك سؤال المستوزرين ومحاسبة الكتاب المنافقين .

لهذا يجب أن تعاد كتابة التاريخ ، وأن تعاد كتابته بمقاييس الحق والواقع . فلا يصور الظلم عدلاً ، والهزيمة نصراً ، والعجز نجاحاً ، وإلا كذبنا على أنفسنا وعلى أجيال مقبلة ، ودخلنا التاريخ غير جديرين بأن يكون لنا تاريخ ، وأصبحنا شعباً قميناً به أن يكون مضغة في الأفواه ، وموضعاً للسخرية والامتهان .

القاهرة في ١٧ فبراير

عجبت لرسالتك القلقة الأخيرة بشأن الإسلام وما يتعرض له في وطنك الأصيل ؟ إن ما يصنعونه هناك لا يهز شعرة في جسم مؤمن ، فإن ديننا أقوى من محاولاتهم الفاشلة ، فما يدعون إليه من صنع جماعة خربة مخربة ودين الإسلام من صنع الله ، فإن كانت معاول الهدم في يد إنسان فإن مطارق الحق في يد الله ، ويد الله أعلى ....

ولا أرى مبرراً لذعرك من تكليف رجال الدين أو إلزامهم عندكم بالدعوة السياسية الملحدة التي يدعون فيها لبلشفة الإسلام ، فإن الإيمان في القلوب ، وهو أقوى وأعمق من أن يهزه لسان شيخ مأجور لبس مسوحه وهرول في ثيابه ووضع على رأسه قلنسوة حمراء أو خضراء !

إننا في مصر رأينا شيئاً من هذا في أيام مضت ...

لم يكن شيوخ الأزهر عندنا يساريين أو دعاة للبلاشفة على أي حال غير أن بعضهم ارتكب من الهنات ما لا يليق بمن جلس على دَسْت المشيخة وورث أعظم مقام ديني في تاريخ الأمة الإسلامية بعد الخلفاء الراشدين .

فمن شيوخ الأزهر من زار روسيا وعاد يشيد بمتاع المسلمين في ظل قلعة الملحدين ، ومن شيوخ الأزهر من عاون بالفتوى في تثبيت صرح الظلم أو صرح الفساد ، أو جرى في ركاب الإنجليز حتى وصل بتأييدهم إلى المقام المرموق ، وعاون بعضهم في تزوير الانتفاضات الوطنية واعتبارها رجساً من عمل الشيطان ، ومنهم من حفظ عن ظهر قلب مواعيد الاحتفال بذكرى وفاة الخديو أو السلطان ، فهرع إلى قبره مترحماً وقبل منافقاً ولده من خديويين وسلاطين ، وفقدت زيارته للمقبرة معناها الذي فسره لنا الرسول عليه السلام ، بأنها زيارة رحمة وعظة واعتبار !

وقد أعجبني ملك زار مصر وأبى زيارة مثوى زعيم له في مصر قدر ومقام ، وقال الملك الزعيم ، إنها زيارة يرفضها مذهبي الذي يحرم زيارة

القبور وتحية الراقدين تحت القباب ، ولم يلق موقفه الصادق مع نفسه ومع الناس أي تعليق أو أي عتاب ، في حين يعود إلى مصر فنان مفتن وهو مطرب مشهور ويتجه فور عودته إلى قبر الزعيم الراحل وينحني يقبل الحجر تحية منه وإجلالاً للرفات التي يضمها هذا الحجر ، وبذلك يردنا الرجل إلى وثنية العرب الذين كانوا ينحنون ويقبلون اللاتَ والعزَّى وهُبَل وغيرها من الأصنام .

إن تكريم العزيز الراحل لا يكون بزيارة المقابر ، والانحناء « للشاهد » وتقبيله ، بل يكون بالتوجه إلى الله عز وجل داعين لمن نحب بالرحمة ، راجين منه سبحانه وتعالى أن يغفر له ما ارتكب من ذنوب .

هذا هو الإسلام كما يفهمه المسلمون ، وغيره زندقة وكفر ونفاق لا يليق بالشيوخ والملوك والرؤساء والمفتنين .

ويقولون إن المماليك والأتراك والولاة وسراة المصريين وسائر المسلمين كانوا يتبارون في وقف العقار والمال على شيخ الأزهر وبغلته ، فقد كان بيت الشيخ بيتاً أيضاً لكل الغادين من بلاد العرب والمسلمين ، ينزلون فيه فيلقون الوفادة الحسنة ، فيطعمون وينامون ، وتلقى دوابهم نفس الوفادة من بغلة الشيخ ؟ فيقتسمون مع الشيخ ، وتقتسم دوابهم مع بغلته ، الخير الذي تدره على المشيخة وبغلتها أوقاف الواقفين ! ...

لقد كانت صورة شيخ الأزهر عند الأجيال السابقة من المصريين صورة من وهب نفسه للرسالة العظيمة ، يكافح عن قداستها ، ويجاهد في سبيل عزة الإسلام والمسلمين ، ولذلك تاريخ مشرق أخذ يخبو نوره منذ مطالع القرن العشرين ، فقد كان شيخ الأزهر في عهد المماليك ، وإبان الحملة الفرنسية ، والصدر الأول من عهد محمد علي ، قائد دنيا ودين ، كان للناس حامياً ، وحال دون طغيان الحكام من شركس وأتراك ، وتصدى لغزوة الفرنسيين ، وقاد مع زملائه من علماء الدين ثورة ضدهم حتى جلوا

آخر الأمر عن مصر ، ثم ثبَّت الشيخ وزملاؤه المُلْك لمحمد علي حين أقسم أن يسير في الرعية سيرة السلف الصالحين .

وكان محمد علي في الأيام الأولى من حكمه يُهرع من صدر قاعة الولاية في القلعة إلى بابها العريض ليستقبل شيخ الإسلام ، وكان الشيخ لا يزوره إلا ناصحاً أو مطالباً بحق للمصريين ، فينحني على يده يقبلها ظهراً لبطن ، ويتأخر خطوة إذا سار الشيخ تأدباً واعترافاً بمقامه المقدور !

ويحكون عن الشيوخ الأماجد الكثير ...

في عهد الأمير سعيد بن محمد علي دُعي شيخ الأزهر إلى حفل أقيم بمناسبة دينية تحتفل بها عادة البلاد ، وركب الرجل بغلته ، فلما وصل إلى ساحة القصر طلبوا إليه أن يترجل ويمشي نحو مائة متر حيث يتصدر الأمير المكان ، فقال الرجل دعوا البغلة حتى تطأ مجلس صاحب العرش ، ولم يترجل الشيخ الكبير إلا حين بلغ مقام الأمير ! ...

وزار الخديو توفيق الأزهر ، وكانت العادة أن يحاضر شيخ الأزهر الطلاب كغيره من الشيوخ ، وجلس الشيخ الإنبابي شيخ الأزهر في ذلك الحين وحوله تلاميذه يستمعون ، وكان من عادته أن يمد رجله وهو يحاضر ، فلما أقبل الخديو طلب إليه التشريفاتي أن « يلم » رجله ، فأبى ومضى يحاضر كأن الأمير غير موجود ، ونُصح الخديو أن يشتري مثل هذا الرجل الشجاع حتى يقف إلى جواره في أزمته مع العُرابيين فبعث له « بِصُرَّة » ضخمة فخمة فيها آلاف المحابيب ، فردها الرجل إلى حاملها وقال ... بلغ أفندينا أن الذي يمد رجله لا يمد يده ؟ ! ...

ثم تهاوى هذا المقام العالي للإمام الأكبر حين قبل شيوخ الأزهر تعيينهم بفرمان أو مرسوم ، بل أصبح بعضهم أدوات للحاكم ، يبصمون المنشورات ويذيعون النداءات يدعون فيها المواطنين إلى السمع والطاعة لأولي الأمر منهم ، بالرغم مما يرتكب أولو الأمر من معصيات ...

ما هذا الذي يحدث عندنا وحولنا ؟

في الوقت الذي تقرر فيه بلجيكا أن الإسلام من الأديان الرسمية في البلاد ، وأنها ستتعهد مقدساته كالجوامع والمساجد بالرعاية المادية والأدبية ، وتعين لها الأئمة والمؤذنين ، وأنها لتدعيم هذا الاتجاه قررت أن تجعل اللغة العربية إحدى اللغات الرسمية التي تدرس في البلاد .

في الوقت الذي تحتفل فيه دولة مسيحية بدين الإسلام ، وفي الوقت الذي كان يجب أن تعلمنا الهزيمة أين الله .. نرى دولة إسلامية تحذف من دستورها شعارها القديم الذي كان ينص على أن الإسلام الدين الرسمي للبلاد ، وأخرى تكاد باتجاهاتها اليسارية تثور على كل الأديان ، وكلتا الدولتين كانت يوماً مقراً لخلفاء المسلمين ! ومنهما خرج المسلمون لنشر كلمة الله حتى رفرف علم الإسلام من مشارف المحيط الأطلسي إلى بحار الهند والصين ...

وإنه ليؤذيك ويؤذيني أن ينصرف المسلمون عن التوجه إلى الله سبحانه ويتقاعسون عن التماس المثوبة عنده ، ويمضون في سياسة الأمور على غير صراطه المستقيم ، ويكفرون بأنعمه ويمشون في الأرض مرحاً ، ويظلمون ويعربدون حتى وقع علينا غضبه وحاقت بالعرب الهزيمة النكراء ، وتلطخت وجوههم بالوحل والطين .

ومن المسلمين من أباح دم المسلمين ، ورتب لهم في ساعات الشدة وأيام المحنة المأجورين لإزهاق أرواحهم ونسف منشآتهم ، ونسي المسلمون أنهم رفاق سلاح وإخوة جهاد ، وأنهم خير أمة أخرجت للناس ، ولا يليق بها أن تفرق أيدي سبأ ، وأن يد الله مع الجماعة إن عرفوا تعاليمه ، وأصاخوا السمع لأحكامه ...

فادع الله معي يا صديقي أن يهدي الخارج علينا ، ويرده إلينا مبرءاً من الهوى ، لا يحمل قلبه موجده ، ولا تخرج على لسانه كلمة سوء ، ولو إلى حين ينصرنا الله على عدونا جميعاً ، عدو العرب والمسلمين ...

القاهرة في ٢٨ فبراير

إن رئيسنا السادات ـ كما تعلم ـ قد رد للقانون هيبته ، وسوده في شؤون حياتنا ، وطبقه على الماضي لرفع المظالم عن الناس وأنشأ لهذه المظالم ديواناً ندر أن قدمت له مظلمة جديدة ، فجل المظالم التي تلقاها هذا الديوان حصيلة ما قبل عهد السادات ، مهما يقل الرئيس إنه يصحح سلبيات شارك فيها ، وهي نخوة فلاح من طبعه الوفاء لجار أو صديق ، وأريحية ابن بلد من سماته أن يحترم العيش والملح ، وما أكثر ما كلفه العيش والملح من متاعب ومشاكل وصعاب ! ...

إن الرئيس السادات يرفع المظالم عن الناس حتى قبل أن ينشئ ديوان المظالم ليتعرف عن طريقه على مواجع المصريين من كل الطبقات ، بيْد أن هناك ظلماً وقع على الشعب والأخلاق وإن لم نلمس ذلك كأفراد ، إلا أن هذا الظلم صارخ وتحميه بقايا مراكز القوى التي تعمل تحت الأرض لحماية الماضي وما كان في طياته من فساد ...

إن قانوناً من أخطر القوانين بقي ميتاً كما يقول الفرنسيون ، وهو قانون « من أين لك هذا » وهو سؤال يرتجف له البعض ، وهو أخطر من سؤال الملكين وقت الحساب ؟ ! ..

وأنا حين أطالب بإحياء هذا القانون فسوف يطير صواب فئة من الناس ، استغلت الثورة التي نحتفل بأيام لها في كل عام ، وأنا لا أتهم جزافاً بل أحمل بما أعلم وبما نقل إليَّ أكثر من وثيقة وأكثر من برهان ، على أن قوماً استغلوا ثورتنا أسوأ استغلال ، فأثروا بلا وعي وبلا ضمير ، وارتفعوا بهذا الثراء الحرام فوق الناس طبقات وطبقات .

وكي أكون منصفاً وعادلاً ، أسجل لك في رسالتي هذه أن الذين قاموا بالثورة وفجروها لا أعلم عمن أعرف منهم إلا ما يشرف أصحاب الرسالات ، فنهم زعيمها الأول محمد نجيب أطال الله عمره ، يعيش هناك

في أقصى ضواحي القاهرة مع كتبه وكلابه وقططه ، يلبس « بدلة » ويخلع أخرى وهما كل ما عنده من ثياب !

ومنهم رائدها الكبير أنور السادات وفقه الله في خدمة بلاده وألهمه السداد ، لا يملك إلا ما ورثه عن الآباء ، وما ورثه يضعه بين ملاك الأرض في آخر الصف حتى لتحسبه ـ إن عرفت ما يملك ـ واحداً ممن حنا عليهم الإصلاح الزراعي ، وأنت تعرف نصيب هؤلاء ! ..

وثالثهم كمال الدين حسين وكان عضواً في مجلس قيادة الثورة ، لم يستطع تسديد أقساط البيت الذي بناه فباعه بأبخس الأثمان ...

ولكن الناس يتساءلون ؟ كيف ينتقل فلان من شقة صغيرة بإحدى العمارات إلى قصر بناه في بضع سنوات ، وكان يريدني وسيطاً ليشتريه صديق لي من الكويت أو قطر أو السعودية أو من أي مكان ، وطلب ثمناً ضئيلاً قدره خمسة وستون ألف جنيه ! وأقول ثمناً ضئيلاً لأن صاحبه لم يحسن تقييم ما يمتلك ! فليست قيمة القصر في الحديقة والبناء ، بل تقدر قيمته بضعف ما طلب صاحبه لما يضمه القصر من طنافس وتحف وثريات ؟ ! ...

ويتساءل الناس ؟ وفلان ذاك الذي هجر مصر إلى بيروت ... من أين جاءته كل هذه الملايين ليعيش هذا الترف يبز به أصحاب البلد من أهل الترف ؟ وكيف خرجت من مصر هذه الملايين إن لم يكن قد استغل البزة وأوسمتها ؟ واستغل في تهريبها ما كان فيه من سلطان ؟ ! ...

ويتساءل الناس ؟ وهذه القصور تبنى على الربى المرتفعات ، أو تقام في شارع خاص سماه القاهريون ساخرين شارع البرنسات ! ... من أين لهم هذه الدور والقصور ؟ ومن الذي مول البناء ؟ وكيف استطاع هؤلاء وهؤلاء أن يعيدوا إلى الذاكرة عهد الملك وأمرائه ، وعهد السراة الذين حبسوهم واعتقلوهم وصادروا أموالهم وأراضيهم وعقاراتهم ومصاغ

زوجاتهم وبناتهم زاعمين أنهم من عرق الشعب كونوا كل هذه الثروات ؟ .

كيف انحرف الثوار أصحاب هذا العز الجديد فحطموا اشتراكية الثورة وأقاموا مجتمعاً يصرخ من ثقل رأسمالية بشعة لم تعرف في تاريخ ثورة من الثورات ؟ ...

من أين لك هذا ؟ هو القانون الضائع في عصر سيادة القانون ... إننا نجري وراء جائع سرق ، أو ساع تقاضى قروشاً إكرامية من صاحب حاجة ، وتهمة السرقة والرشوة قد تشفع لهما معدة الجائع أو حاجة أبناء الساعي إلى كراسة أو كتاب ، أما الذين سرقوا الملايين ، ونهبوا القصور والبيوت ، وارتشوا علانية وبلا حياء ، واستغلوا الوظيفة ليصلوا إلى أبشع أنواع الثراء ، ووضعوا الأغنياء تحت الحراسة ثم رفعوها عنهم بعد أن اقتسموا وإياهم ما ورث المحروسون من الآباء ! ثم سجنوا الأحرار ولم يفرجوا عنهم إلا بعد أن تقاضوا أجر الإفراج آلافاً من الجنيهات ، ثم راحوا يرتعون جميعاً فيما حصلوا عليه من مال حرام دون أن يسألهم أحد من أين جاءكم هذا الرزق والسماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ؟ ولم نعرف لكم ميراثاً عن أب أو خال ؟ بل تحكي أيامكم الأولى أروع قصص الفقر والإملاق ؟

* * *

ثم تعالوا نسأل كيف نامت نواطير مصر عن ثعالبها الجديدة تمتص خيراتها وتتركها على غير ما قال الشاعر وقد فنيت عناقيدها ؟ ! .

ثم تعالوا نسأل أولي الأمر فينا عما نشرته صحفنا عن ملايين هربت من مصر في عهد مضى ، ووضعت الدولة يدها عليها ، وحصل سفيرها في سويسرا على مليونين منها ، فأين الملايين التسعة الباقية هناك ، أو الملايين المائة أو المائتان التي يزعم المواطنون همساً أنها القدر الصحيح الذي هرب باسم هذا أو ذاك ؟ ! ...

وإذا كان قانون من أين لك هذا قد قبر بعد أن مات ، فكيف يجري

الرزق من عرق العامل والفلاح على أصحاب الملايين أولئك الذين على يديهم تحققت الهزيمة ونزل بنا العار ؟ .

والناس يتساءلون ؟ ما هي الخدمات التي قدمها هؤلاء للبلاد حتى ترتب لهم كل هذه المخصصات ، وكل هذا المتاع ، وكل هذه الرعاية التي تبدو واضحة في القصور المنيفة ، والسيارات الفاخرة ، والمطابخ العامرة ، والحجرات مكيفة الهواء ، وقاعات عرض السينما تسلية للأولاد من أبناء وأحفاد ! وقيل : ومطار تحت البيت كامل العدة والمعدات ! ؟ ...

ثم هذا الحشد من الخدم والحشم ، والحراس فوق الأسطح والحديقة وعلى الباب وفي الشارع يمنعون الناس من المرور ، فالشارع وقف على سكان القصر بالرغم من حل الأوقاف ! ... ومن بين هؤلاء الخدم والحشم والحراس من عين في درجة وزير ، وهو أمر لم نسمع به قط إلا في قصص جحا والسندباد أو فيما يمثل على المسارح من روايات ! .

وهل سمعتم أن أصحاب الملايين أولئك الذين تجاوزت مخصصاتهم السنوية عشرات الألوف من الجنيهات ساهموا بقرش في المجهود الحربي قبل المعركة أو بعدها ؟ أو مدوا يد العون لأسرة فقدت في الميدان عائلها ؟ أو حمل فرد منهم باقة ورد لضابط أو جندي يرقد في مشفى هنا أو مشفى هناك ؟ .

الناس يسألون وزير المظالم هل يدخل في اختصاصه النظر في شكوى عامة من شخصية معنوية إسمها الضمير العام ؟ وهل يجوز له أن يعد في ذلك تقريراً لزعيم البلاد يسجل فيه همس الناس فيما انطوت عليه هذه الرسالة من همسات ؟ .

أكبر ظني أن في أدران الماضي أموراً تحتاج إلى حرب أشد ضراوة من الحرب التي تم فيها عبور القناة وتحطيم الموانع ورد العدو على الأعقاب ، فالعدو لا يزال بيننا في هذه الصورة البغيضة التي تمثلها هيئة المنتفعين من

اللصوص والمهربين والمرتشين والمستغلين ، ومن الذين استباحوا عرق العمال والفلاحين ، فعاشوا في نعيم مقيم وأصحاب العرق لا يزالون يأكلون المش بالدود ويشربون الماء بالوحل والطين ...

* * *

القاهرة في ١٢ مارس

ما هذا الذي يجري عندكم في لبنان ؟ .

إلى أين انتهى المطاف بهذا البلد الرخي البال ، السادر في بحبوحة من العيش ترفرف عليه أعلام السلام ؟

أين ناسه الذين أقبلنا عليهم يوماً خائفين لاجئين ، فبدلوا خوفنا أمناً ، وحولوا ملجأنا إلى وطن جديد ، بعد أن فقدنا في وطننا الأصيل الأمن والاستقرار ؟ .

ما لحياة هذا البلد قد طوتها الغيوم ، واستباحت كرامته شرذمة نزلت به كما ينزل الطاعون ، فملأت النفوس السعيدة بهم مقيم ؟ .

مالي لا أسمع تلك الموسيقى الشجية في البيوت والشوارع والنوادي والمقاهي وعبر الطريق ؟ .

مالي لا أسمع إلا طلقات الرصاص يصرع بها الأحرار أصحاب الأفكار الذين نزحوا إلى لبنان منفيين أو لاجئين . فلم يجدوا إلا الموت في البلد الطيب الجميل ؟ .

أين لبنان الذي كنا نرتع على ساحله وسط أمواج من الجمال والدلال ؟ وأين ذهبت جباله التي كنا نصعد إليها سعداء بين أشجار الخوخ والعنب والتفاح ، ونمرح في أحضان شجيرات الأرز الممتدة على طول البصر كلوحة فنان ؟ .

أين لبنان الذي كنا نغبطه على هذه الحرية التي يستمتع بها أصحابه قولاً وفعلاً . ويمارسونها تجارة وصناعة ، ويسعدون بها في حياتهم الخاصة والعامة ؟ كيف نكست أعلامها فلم يعد كاتب آمناً على قلمه ، فهو معرض للخطف أو الاغتيال ، ولم يعد حر مطمئناً إلى رأي يعلنه حتى لا يرديه الرصاص في ميادين العاصمة وفي وضح النهار ؟ .

من هؤلاء المجرمون الذين يحطمون سمعة لبنان ، ليفقد سياحه ، وتبور تجارته ، وتغلق دونه الأبواب وهو البلد المنفتح المتفتح الذي لم يعرف قط اسم الانغلاق ؟ .

ما كل هذه الصحف الصغيرة التي تطبع عندكم وتنشر ، وتكاد تفقد بانصراف الناس عنها ركن العلانية كما يقول أهل القانون ؟ من يموِّلها بكل هذه الملايين ؟ ومن يغذيها بكل هذه البذاءة من فاحش القول وعبارات السوقة والدهماء ؟ .

إني أعلم أن صحفاً هزيلة في بيروت عرضت ذمتها في السوق السوداء ثم باعتها لبعض طغاة العرب من هذا البلد أو ذاك ، ثم كان لمصر في جيل مضى نصيب في هذه الصحف الصفراء ...

وقد كان من مهام السفير المصري أو المندوب السامي المصري كما سماه ظرفاء بيروت شراء مثل هذه الصحف ، ثم تمويل كتب الدعاية السمجة للنظام وأصحابه ، وخطف المعارضين ونقلهم بالطائرات حيث تنتظرهم المحاكمات الصورية التي تستغرق دقائق معدودات ، يصدر في نهايتها حكم على المخطوف بالشنق أو القذف به في السجون والمعتقلات ، ثم كان من واجبات المندوب السامي تنظيم الببغاوات في مظاهرات وتلقينها بالفارغ من الشعارات تصرخ بها في شوارع طرابلس وبيروت ، وتزويدها بالأسلحة إن احتاج الأمر إلى سلاح .

لقد فتح « المندوب السامي » لهذه الصحف خزائن فرعون على مصاريعها ، فتبارت هذه الصحف في تأييد المظالم التي وقعت بمصر والتي حاقت خاصة بالمصريين أصحاب الآراء المنيرة المستنيرة ، وتصوير هذا البلاء للعالم العربي على أنه حماية للثورة ومكاسبها الاشتراكية ثم تولت هذه الصحف المأجورة تسفيه رأي كل زعيم عربي يبدي ملاحظة رقيقة أو نقداً رفيقاً لأخطاء السياسة المصرية في الشؤون العربية ، ومن ذلك حدث

لم يعرف في تاريخ الأمم والشعوب ، فقد رحبت هذه الصحف باعتقال مصر لمجلس الوزراء اليمني ، وقد دعي إلى القاهرة لتصفية الخلاف بينه وبين رئيسه السلال ، واعتبرت اعتقال الساسة اليمنيين في معتقل القلعة ضيافة كريمة من الحكومة المصرية تقتضي التنويه بأريحية مصر وحكامها الكرام الصالحين ؟ ! .

وحين تولت أمور مصر وجوه جديدة وتبدلت الأحوال فيها ، تحول « المندوب السامي » إلى سفير فقط لمصر في لبنان ، وأغلقت خزائن فرعون ، وقبضت مصر يدها عن هذا السفه في تبديد أموالها لمجد شخصي ما لبث أن هوى وانهار ، وحفيت أقدام أصحاب هذه الصحف الصفراء عند العهد الجديد ليبتز لها عرق العمال والفلاحين ، بيد أن العهد الجديد ضن بهذا العرق على المرتزقة من أصحاب هذه الصناعة ، فالصحافة من هذا النوع صناعة ، وهي صحافة بكسر الصاد كالحدادة والبرادة، وليست هذه الوظيفة الاجتماعية الرفيعة التي لا يمتهنها إلا الأحرار من الصحفيين .

وقد حير كثيرين سؤال خطير ...

كيف استطاعت أن تعيش هذه الصحف الحقيرة وقد فقدت في مصر العون والتأييد والتمويل ؟ .

لقد جاء العون من قوم آثرناهم بمودتنا ، ولا نحب أن نذكرهم بسوء ، غير أنهم خاصمونا بعنف وقسوة ، وصوروا نصرنا هزيمة .

وبينما العرب جميعاً يتنفسون الصعداء بعد سنوات الذل والانكسار ، إذا بهم وحدهم يريدون أن يفسدوا فرحة العرب بالنصر ، فيهونون من شهر رمضان المبارك الذي عبر المصريون فيه قناتهم وردوا المغيرين على أعقابهم ، وحطموا حاجز الأوهام ، فيسمونه في حديث نشرته الصحف ونقلته الإذاعات ، شهر العار والشنار ، وقسوا في أحكامهم حتى فضلوا عليه هزيمة يونيو وسموها هزيمة الشجعان ! ولأول مرة في التاريخ يوصف

الفارون المهزومون بأنهم شجعان وفرسان ! ...

تتولى هذه الصحف المريضة كل يوم الحملة على مصر ، بالتحقير من رسالتها ، والتهوين من جهادها ، ثم بالمن عليها بتلك الملاليم التي ساهموا بها في معركة المصير . وهي المعركة التي جمعت العرب في صعيد واحد ، ووحدت صفوفهم في وحدة أذهلت العدو والصديق ، وهي وحدة كان العرب يفتقدونها منذ قرون .

نحن المصريين ، أصحاب الضحايا والتضحيات ، لا نمن على أحد بما قدمت بلادنا العظيمة من أياد ومكرمات ، فإن مصر قد حملت منذ عهد سحيق أعباء الدفاع عن الجيران وحضاراتهم القديمة ، وحمت برجالها وأموالها فلسطين وما تاخمها شمالاً وشرقاً قبل غزوة الهكسوس وبعدها . ومصر هي التي رفعت علم الإسلام ، وبدم شهدائها حررت بلاد المسلمين أيام الصليبيين وانتزعت القدس من أيديهم لتبقى في أيدي العرب ، ولا أعدد تضحيات مصر في ربع القرن الأخير ، فذلك حديث معاد يعرفه كل صديق .

ومصر التي عاشت آلاف السنين أعلى مستوى لم يُضِرها أن تهبط بمستواها فتأكل وحدها في المنطقة الخبز الأسود ، وتثقل بالأحجار على بطنها من أجل عزة المسلمين ثم من أجل كرامة العرب ، وأكد هذه الحقيقة الملك فيصل حين قال لوزرائه وحوارييه ، إن تأييد مصر باليد والصلة لتبقى قوية وعزيزة هو حماية للعرب جميعاً وليس فضلاً يُمن به عليها ، وهذا حس الزعيم العاقل الواعي ، فمصر حصن العرب ، إن انهار انهارت عروبتهم وخبت شعلتهم وطوي تاريخهم .

القاهرة في ٣٠ مارس

الحرية لا تُقوَّم بثمن ...
هذه حقيقة غابت عن كثير من الحكام

والحرية آخر الأمر منتصرة على كل طاغية ... بذلك قالت أحداث التاريخ وأكثر الطغاة قرءوا التاريخ ، بيد أنهم لا يهضمون ما يقرءون ...

في سنة ١٩٦٨ خرج الشباب من طلاب الجامعات والمعاهد والمدارس في القاهرة والأسكندرية والمنصورة وطنطا وأسيوط يهتفون للحرية .. وذهل إخوان الصفا ، وذعر حملة القماقم ، فقد كانوا يظنون أن حكمهم قد ألجم كل لسان وفَتَّ في عضد كل إنسان ،ولم يبق للمواطن من حق الشكوى إلا التأوهات والتنهدات ... فلما تحول الزفير إلى زئير ، أخذوا يتساءلون عما يعنيه هذا الشباب من هتافهم للحرية ، فعلى قدر علم السلطان وفهم السلطان ، فإن هذا الشباب يستمتع بأوسع الحريات ، وقد ذكَّروه بهذه الحقيقة بمنطق عجب في خطاب مشهور ألقي في حفل لعمال حلوان كان الغرض منه الوقيعة بين العمال وبين الطلاب الثائرين ! ..

قالوا للطلاب : ماذا تريدون ؟ إنكم تأكلون « السَّلاطة » والدجاج متوفر في الأسواق ، ونحن نوظفكم ، ونمكنكم آخر الأمر من الزواج فهل في الدنيا حرية أفضل مما نقدم لكم ؟ إنه إذن البطر كل البطر ، والله لا يحب البطرين ! ...

ونظر الشبان إلى الكلاب والحمير ... فإذا هي تأكل مثلهم شيئاً كالسَّلاطة ، وتتزاوج في يسر دون مشاغل من مهر وبيت وأثاث وطعام ، وإذا هي ــ الكلاب والحمير ــ أسعد حالاً من الشبان الغر الميامين !

وقد علم الشبان الثائرون من آبائهم أن « السلاطة » في عهد الملكية كانت أكثر وفرة ، وكان الدجاج في متناول أيدي الكثيرين ، وكانت

مطالب الزواج مقدوراً عليها ، وخاصة المسكن والملبس ونقلة الطريق !
ومع ذلك فإن الآباء ثاروا في عهود الملوك هاتفين للحرية أيضاً ، وصرع منهم من صرع ، وسجن منهم من سجن ، وذلك كله لأن الحرية لم تكن قط طعاماً أو زواجاً ، بل هي شيء أعز من هذا الذي يدعونهم إليه ...

إن الحرية لا تقوم بالسلاطة والدجاج والوظيفة والزواج ، فهو ثمن رخيص ، ومع رخصه وتفاهته ، فإن الخطباء أصحاب هذه الحرية عجزوا عن توفيره للكثرة من الشبان الثائرين ، أما القلة التي تيسرت لهم هذه الحرية الرخيصة التافهة فقد كانوا من ذوي الحظوة أو تربطهم أواصر القربى بواحد أو آخر من البطانة والحواريين .

ولما عرف الحاكمون أن للشبان رأياً في الحرية أسمى من « السلاطة » وأغلى من الدجاج وأكبر من الوظيفة وأمتع من النساء ، نشروا عليهم بياناً في مثل هذا اليوم من ذاك العام ، يتحدث عن الحرية بمعناها الرفيع واعتبروا البيان ميثاقاً آخر وعهداً بين الحاكم والمحكومين ، وغيروا الوزارة واستوزروا بعض أهل الثقة من الأساتذة الجامعيين ، وحمل البيان عبارات تسجل حق المواطن في التعبير عن رأيه في صراحة وحرية ودون خوف من سلطة ، سواء كانت سلطة وزير أو سلطة خفير ! .

ونظر الشبان حولهم ، فوجدوا أن البيان الرائع شيء ، وواقع ما يعيشون فيه شيء آخر ، فقد ثبت أن حرية الاجتماع محظورة ، لأن اجتماعات تمت بُعَيْدَ صدور البيان فاعتقلت السلطة معظم المجتمعين ، ولم يجد الشبان صحيفة واحدة يشكون فيها اضطهاد الرأي وسجن الزملاء بلا مبرر مفهوم ! فقد كانت الصحف ملكاً للسلطة وتخضع لرقابتها ولا تنشر إلا ما يوحى به إليها ، ثم نافست مباحث الشرطة المخابرات الحربية في القبض على كل من يهمس برأي يخالف رأي الحكومة ، وحجة الجهتين معاً أن العدو بين ظهرانينا ، وما ينبغي أن يسمع هذا العدو نقداً ولو كان

همساً ، فالهمس في ضمير الحاكم خيانة وطنية عقوبتها الإعدام ، ولكن الحكومة تتجاوز عن حقها ـ عطفاً منها ـ فتقصر عقابها على السجن أو المعتقل أو الحرمان من الامتحان أو تأخذ المذنب من هؤلاء الطلبة بكل هذا تزيداً في الحيطة وحسباناً لغدر الزمان ؟ ! ...

ونظر الشبان حولهم فرأوا دستوراً يحمي الحريات ، وميثاقاً يؤكد هذه الحريات ، « وبياناً » يقسم بأغلظ الأيمان بأن الحرية حق لكل الأحياء ، ثم إذا كل هذه المواثيق موضوعات إنشائية رائعة كتبها أديب مفتن أو شاعر فنان ، وأنه لا حرية إلا في السلاطة ، وفي الدجاج إن وجد ، وفي الزواج إن تيسرت أموره ! والله ولي الصابرين ...

وتقطعت أواصر المحبة بين الشبان وحكامهم ، وأخذوا ينظرون إليهم نظرة التوجس والخيفة ، تماماً كما كان المصريون ينظرون إلى حكامهم قبل أن يتولى أمور الوطن الزعيم الخالد سعد زغلول ، الذي قنن في عبارة مشهورة نظرية حكمه الجديد فقال : إن الحكومة الصالحة هي التي ينظر إليها المواطنون « نظرة الجندي للقائد لا نظرة الطير للصائد » ...

وعاش الشبان منذ هزيمة يونيو إلى ثورة التصحيح « متفسخين » كما علمونا من ألفاظ ! أو قل ضائعين كما يفهم الناس ! .... لا يدرون أمساقون هم مرة أخرى إلى الذبح والسلخ ، أو هم مجندون حقاً للذود عن الوطن وحماية الذمار ؟ وعاش الشبان في شك قاتل ، لأن حياتهم وضعت في إطار من الكذب والنفاق .

كل ما حولهم كذب ونفاق ! ...

مواثيق الحرية تكشف أكاذيبها السجون والمعتقلات ...

مقالات الدعوة للتقشف من أجل السلاح يقابلها ترف القادة والوزراء ...

صحافة منافقة ، منافقة ، منافقة ، ومحرروها أدوات لتمكين الظلم والطغيان ...

صحافة كذابة ، كذابة ، كذابة في كل ما تنشر عن مكاننا الصحيح في معركة المصير مع الأعداء ، أو عن أخبار الداخل ، مسَّ ذلك التموين أو الأمن أو الدين أو الأخلاق ! .

وقد يبدو من حديثي عن صحافتنا أنني أنكر وجودها وأحكم عليها بالإعدام ، وليس هذا صحيحاً ، ولا يمكن أن تصدر عني مثل هذه الأحكام ، فإن هذه الصحف بالرغم من الكذب والنفاق ، كان بينها صحف زانت تاريخ الصحافة المصرية ، وقد عجزت صحف منها عن بيان وجه الحق في كثير من الأمور ، ودخلت في امتحان مروع مع السلطان الذي عصف بتاريخها ومثلها ويقينها .

ولا أستطيع أن أغفل من تاريخ بعض الصحف الأخرى شخصيات تفرض عليك احترامها وإكبارها ، سواء منها من قضي أو ما يزال يعيش معنا ، فإن هذه الشخصيات لم تنافق قط ، بل مشت على إفريز شارع الصحافة تكتب أدباً أو قصصاً أو نهراً قصيراً يعالج مشكلة اجتماعية ولكن في خفر وعلى استحياء ، وبذلك تجنبت مسالك النفاق الوعرة التي آذت حتى كبار المنافقين !

بيد أن صحف مصر جميعاً وبلا استثناء ضمت بين محرريها بعض أساطين النفاق وأصحاب الأصالة فيه منذ قديم ، ولا يعرف جيل الثورة أن أولئك الذين نافقوا أبطال الهزيمة ، قد نافقوا من قبل ملكاً في كل ما ارتكب من المعاصي والآثام ، بل نافقوا لحيته التي أرسلها ليضحك بها على ذقون البسطاء ! بل نافقوا كلبته فطبلوا وزمروا لها حين حملها الباشا سكرتيره إلى إيران ليعقد قرانها على كلب مشهور من كلاب الشاه ! ! .

وسخرت من ذلك جريدة (المصري) رحم الله صاحبها ورد إلينا كاتبها ، فنشرت عن الباشا وكلبة السلطان بياناً بالخط العريض جعلت له عنواناً ساخراً قالت فيه « النسب الجديد بين مصر وإيران » ؟ !

وكان قد تم من قبل نسب بين الأسرتين الحاكمتين ، إذ بنى شاه إيران بشقيقة الملك فاروق ، وإن انفصمت عرى النسب بعد قليل من الأعوام ....

كانت شجاعة بعض الصحف في زمن مضى مضرب الأمثال ..

كان أحمد حسين صاحب مجلة وقلم ولسان ، وكان شجاعاً لا يجبن ولا يخاف ، فتولى الحملة على الملك حين زعم أن شعبه سعيد لا تنقصه حاجة فنشر له صوراً تكشف عن بؤس المواطنين وجوعهم وعريهم ، وقال له بأضخم عنوان ... هؤلاء رعاياك يا مولاي ! هؤلاء إخوتنا الجائعون العرايا المرضى بالسل وبأشنع من السل من أمراض ، وهم دليل على كذبك يا مولاي ! ...

ثم نشر هجوماً عنيفاً جاوز به الحدود المرعية في خطاب الناس للناس ، وكتب على رأس مجلته مقالاً يقول فيه إنه « يبول » على رأس وزير الداخلية ! ووزير الداخلية ذاك رجل أصيل ومهذب ، وينتسب إلى حزب الوفد صاحب الأغلبية الساحقة في البلاد ، ولم يستطع الوزير أن يمنع المجلة من التوزيع حيث كان في مصر دستور يحمي أفكار أصحاب الرأي ، وإن عبرت عن أفكارهم عبارات يستهجنها الكثيرون وقد يحاسب عليها القانون ..

وكان لمصر يخت اسمه فخر البحار ، وكان الملك يستقله كل صيف ، ويرتكب فيه كل المباذل والموبقات ، وهاجمت المجلة في شجاعة ما يجري على صفحة الماء في أسلوب عنيف قاس كان أخف ما فيه وصفاً لليخت فسمته ماخور البحار ؟ ! ..

ونشرت الصحف ثورة الشبان بعد هزيمة ١٩٤٨وإن كانت أشرف الهزائم في تاريخ البلاد ، فقد استطاع جيش « المحمل » كما كانوا يسمونه ساخرين ، استطاع بذخيرته الفاسدة كما زعموا أن يحتفظ للفلسطينيين بنصف فلسطين ، وأن يصمد في موقع الفالوجا ، وأن يصل

أثناء المعارك إلى مشارف تل أبيب ، وكان نصره أكيداً لولا خيانة الملك في مصر وخيانة بعض المحاربين من جيوش عربية أخرى ، أولئك الذين سلموا مفاتيح النصر للأعداء على حساب جنودنا الأبطال ...

ونشرت الصحف ثورة الشبان سنة ١٩٤٨ ونشرت غيرها من الثورات التي استمرت بعد هزيمة فلسطين إلى الشهور التي سبقت قيـــام الثورة ، وحملت آخر الثورات في يناير ١٩٥٢ هتافات ضد الملك وأسرته ، فقد كان الملك سيـيء السيرة لا يقيم وزناً لآداب المجتمع وأخلاقيات الدين ، وعاشت أمه وأخته في أمريكا حياة متحررة لا تليق بأم ملك وشقيقة ملك ، لذلك حطمت المظاهرات صوره في عرض الطريق ، وتضمنت هتافاتها سباً لأمه وأخته وأسلافه الأولين ، وتحدثت عن الطهارة والدعارة بعبارات يعف القلم عن ذكرها وإن ألمحت لها هنا من بعيد ...

ومع ذلك وُجد وزير ومشايخ نشروا بياناً يؤكدون فيه أن الوثائق تثبت أن الملك من نسل نبي المسلمين ! ! ...

ووجد صحفيون ــ أصبحوا أعلاماً في عهد الثورة ــ يهللون ويطبلون للوثائق الزائفة ، ويطلبون إلى الشعب أن يسعد ويهنأ بملكه الذي ينتمي بالصلة والنسب إلى سيد الخلق أجمعين ، ونشروا بجانب الدعاية صوراً « للسيد » الملك بذقنه المرسلة وسبحته الطويلة وسط حشد من رجال الدين ..

وقبل ذلك التاريخ بسنين وسنين ، وفي عهد الملك فؤاد الذي حكم مصر منذ سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩٣٦ ، قامت بينه وبين الجامعة المصرية أزمات تلو أزمات ، فقد عارض عند إنشائها تكوين قسم للفلسفة والمنطق خشية أن يتعلم أولاد العمال والفلاحين مواد من شأنها أن تدعوهم إلى التساؤل ، وما أكثر ما كان في مصر من مآس تستوجب السؤال ؟ ! وانتصرت الجامعة وانشئ قسم للفلسفة والمنطق ، وكان وراء هذا النصر

لطفي السيد وطه حسين ، وكان الأول مديراً للجامعة والثاني عميداً لكلية الآداب .

وقامت أزمة بين الملك فؤاد وبين الجامعة حين قبلت في كلياتها تسع فتيات ، فقد عارض الملك بشدة تعليم البنت في الجامعة ، غير أن القافلة سارت وبقي الملك وحده في الطريق ! ...

وضاق الملك فؤاد بهذا الرعيل من الأحرار ، وخاصة زعيمهم طه حسين ، وكان دائماً وراء كل هذا الانفتاح ، فأمر بنقله إلى وزارة المعارف وأبى الرجل تنفيذ القرار . فصدر مرسوم بفصله ، وثارت الجامعة بكلياتها الأربع ، الحقوق والطب والعلوم والآداب ، وخرجت مظاهراتها إلى الشوارع تهتف بحرية الجامعة وحصانة حرمها العتيد ، فأغلقتها الحكومة بعد أن مكنت ثورة الشباب من مقام الجامعة عند الرأي العام وكان حديث عهد بمقام الجامعات .

كان هذا جيل الآباء ، جيل التخلف كما صوروه للأبناء ؟ ! ...

حدث فصل طه حسين من عشرين عاماً قبل قيام الثورة ، فماذا حدث للجامعة بعد الثورة وبعد أن تعددت الجامعات ؟

فصلوا مئات من أساتذتها على « حلقات » كما تعرض في التليفزيون والراديو مختلف الروايات والمسلسلات المضحكات منها والمبكيات ! فصلوا بعضهم بحجة العجز في الإنتاج ، وفصل ثلاثة من الأساتذة لأنهم تعرضوا لزميل ــ والزميل من أهل الثقة ــ تعرضوا له بالنقد لأنه عبث بحرمه الامتحانات ! ثم فصل نحو ستين أستاذاً في قرار واحد ، لأنهم واجهوا الوزير بكلمة حق ، والوزير إذ ذاك من القادة ، وما ينبغي أن يلفت نظر قائد لخطأ حدث ، فليس القائد من البشر معرضاً للخطأ والصواب ؟ ! .

وعاش جيل الثورة كل هذا ، وعاشت الجامعات كل هذا الهوان

فلم يُفتح فم بكلمة احتجاج حتى جاء الرئيس السادات بعد عشرين عاماً من مأتم العلم فرد معظم الأساتذة إلى مناصبهم ، ومن شغلته الدنيا منهم بعمل عظيم وتعذر عليه استئناف الرسالة ، أعطوه حقه كاملاً ، وكان في ذلك غاية التقدير من الدولة لأساطين العلوم والفنون والآداب ...

ثم سمع الشبان من آبائهم كيف هاجم عباس العقاد الأديب المشهور ، الملك فؤاداً وهو في قمة طغيانه وسلطانه ، وطالب بتحطيم رأسه إن حاول مس الدستور والعودة بالبلاد إلى حكم الفرد ، وهو حكم أذل مصر من قبل ومن بعد ! ! ولا تقبله إلا أجيال الضعف التي استكانت للهوان ومضت تستعبدها لقمة العيش، وما أمرها من لقمة أذلت الناس واسود من سوادها الجبين ! ...

وسجن العقاد ، ولكن ذلك لم يضعف من رجولية الرجال ، أو يفت في شجاعة الأحرار المجاهدين .

وحكى الآباء لجيل الثورة كيف هاجم نائب في مجلس النواب إسراف الملك عند نظر ميزانية القصور الملكية وما خصص فيها من ألوف الجنيهات لكي الملابس وصنع «الكنافة» وما رصد لشراء بندقها ولوزها وجوزها وزبيبها ! وحذف نواب الشعب من مخصصات الملك كل هذا التبذير ، ولم يخش النائب الثائر سلطان الطاغية ، ولا ندم على ما أصابه بعد ذلك من انتقام ملكي ترتبت عليه مآس أصابت زوجه وولده وجاهه عند أهله ومواطنيه ، من ذوات وفلاحين ...

وحتى يعرف الجيل الحالي كيف كان آباؤه وأجداده يسوسون أمور الحياة في إطار من الرجولية والشجاعة ، وأن الحرية والديمقراطية والعدالة لم تكن شعارات تطلق في الهواء ، بل كانت واقعاً يملأ عليهم دنياهم ، نحكي لهم قضية الصحافة والعدالة في عهد الزعيم الخالد سعد زغلول .

لقد هاجمت مجلة الكشكول سعد زغلول هجوماً أسفّت فيه المجلة

غاية الإسفاف ، وكان سعد إذ ذاك رئيساً لمجلس الوزراء ، فلجأ الرئيس إلى القضاء ، ولكن القضاء برأ ساحة المحرر وأطلق سراحه .

وزار سعداً في ذلك الوقت مراسل لإحدى الصحف الإنجليزية ، فبدأ حديثه آسفاً لحكم القضاء ، وهو يريد أن يبدو للرئيس معزياً وإن كان في واقع الأمر جاء متشفياً ، فقال له سعد العظيم : إني سعيد بهذا الحكم لأنه أعطى الصحافة من الحرية ما تستطيع به أن تهاجم رئيس الوزارة ولو كان سعد زغلول ... وأكد استقلال القضاء بحيث يحكم القاضي ضد رئيس الوزارة ولو كان سعد زغلول ... وإذا ملكت مصر صحافة حرة وقضاء مستقلاً فلن يكون للاحتلال مكان .

وقرأ جيل الثورة « سطراً » مكتوباً أممت به الصحافة ...

وقرأ جيل الثورة « سطراً » مكتوباً فُصل به جميع القضاة ...

وفي جيل الآباء ـ وهو جيل التخلف ، وجيل العبيد ، وجيل النعاج كما صوروه لشباب الثورة زهاء ثمانية عشر عاماً ـ كان ممثلو الأمة في مجلس النواب يهاجمون الحكومة وهم من حزبها ، وفي ذلك هاجم أحمد أبو الفتح رئيس تحرير جريدة المصري لسان حزب الوفد الحاكم ، حكومة الوفد حين رحبت بقيد على حرية الصحافة في سنة ١٩٥٢ وانتصر الصحفي الوفدي على حكومته ، فسحبت تأييدها للقانون حماية للدستور وتعظيماً لرايته .

وشاهد جيل الثورة مجلساً للأمة ، إذا تعرض نائب من نوابه لوزير بالنقد الهين اللين المائع أحياناً ، هُدد المجلس بالفض والتسريح لذلك لم يؤثر عن هذا المجلس أنه عارض أي قانون تقدمت به الحكومة ولو معارضة شكلية متفقاً عليها تستر ماء الوجه وتخرس ألسنة التنكيت والتبكيت في كل مكان ! ...

سمع الشبان بذلك كله فأفاقوا من غيبوبة الشعارات ، وأكبروا سلفهم

من الآباء الذين تمردوا كلما تعرض الوطن لفجيعة أو مصاب ، وعلموا كيف ثار آباؤهم لهزيمة ١٩٤٨ ، وهي في الحق نصف هزيمة أو لعلها نصف نصر ، وقاسوا جيلهم بجيل السابقين ، جيلهم الذي حاقت به الهزيمة سنة ١٩٦٧ فبكى لا على مصر بل بكى خشية أن يغيب عنهم « الوهم » ورقص لا للنصر بل رقص لأشنع هزائمنا في التاريخ ! وسمح بأغاني النفاق ينشدها مطربو السلطة ، وأحاديث الجمعة بالدعاء لزعماء الهزيمة يذيعها أئمة السلطة ، ومقالات التأييد لأصحاب العار يكتبها صحفيو السلطة ....

سمع الشباب قصة جيل سبق ثار على كل الكبائر والهنات ، ورأوا قصة جيل عاشوه ، « فتفسخت » نفوسهم كما يقولون ، فاستيقظوا بعد سنوات من التخدير ، وتحرروا من دق الطبول ونفخ المزامير ، وخرجوا إلى الشوارع في سنة ١٩٦٨ يهتفون بسقوط الخونة من الوزراء والقواد ومن وضع سمعة مصر أسفل سافلين ، ويطالبون بإطلاق الحريات ، فإذا بهم يعلمون ـ ولا أقول يتعلمون ـ بأن الحرية سلاطة ودجاج ووظيفة وامرأة حلال ! وهي غاية ما بلغته الحرية في النصف الثاني من القرن العشرين ! ....

ورفض الجيل أن يكون صنواً للكلاب والحمير ، فحارب حين دعا الداعي إلى تحرير الأرض بقوة وشراسة ، ليعيش بعد النصر حرية صحيحة سليمة ، كان دمه ثمنها ، وكانت روحه فداءها ، ومنذ ذلك التاريخ وهو سعيد ، سواء حصل على السلاطة أو افتقدها إلى حين ، سعيد أصاب دجاجة أو خرج من الطابور صفر اليدين ....

القاهرة في ٨ أبريل

لقد علمت من رسائلي أن الرئيس السادات يعالج سلبيات الثورة بشتى أساليب العلاج ، وإنك لتعلم أنه بقدر ما كان لثورة ٢٣ يوليو العظيمة من منجزات ، فإن بعض القائمين عليها انحرفوا بها عن غاياتها السامية حتى بدت في غلالة شفافة تكشف عن مفاتنها كما تكشف عن عيوبها سواء ، ومن هنا جاءت ثورة ١٥ مايو إنقاذاً لثورتنا الكبرى من الانهيار والضياع .

فثورة مايو لم تكن حركة تصحيح كما سموها تواضعاً ، بل كانت ثورة بيضاء قلبت أوضاع المجتمع ، فمن ذعر كان يعيش فيه الناس ، كل الناس ، إلى طمأنينة ملأت النفوس أمناً على يومها وعلى مستقبل الأيام ، ولهذا حديث سبق أن فصلته لك في رسائلي الكثار .

وأولئك الذين يعيبون علينا الحديث عن فواجع الماضي ، ويطلبون إلينا أن نكف عن كشف المخبأ من المآسي ، إنما يريدون بقاء الرواسب في مستنقع قذر تهب منه رياح عفنة تفسد ما نستنشق من هواء ....

ويقول أولئك في سذاجة الخبثاء أو في خبث السذج الخالين من الفطنة والذكاء ، أين كنتم يوم نزلت بكم الفواجع . وحلت المآسي ؟ فلم ينطق منكم لسان ، أو يكتب أحدكم احتجاجاً أو اعتراضاً ، ولم يصدر عن شجاع منكم خطاب أو بيان ، بل كان دأبكم الترحيب بالمآسي ، والتشجيع على ارتكاب المعاصي ، وكنتم تهللون وتصفقون متنافسين دون وعي أو تفكير في الزلفى لمن أراكم الهول وأذاقكم المر وألبسكم طرح النساء !

لقد أنسي أولئك أن أولي الأمر فينا قالوا لنا في زفة الشعارات : إرفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد ... وصدق البلهاء منا هذه الدعوة ، فرفعوا رءوسهم بعبط ، فطارت بسيف ، أو اعتصرت بحبل ، أو حطمت برصاصة طائشة ، أو مزقت بحادث سيارة في الطريق العام ! ! .

وإذا كان بعضنا قد رحب بالمآسي وشجع على ارتكاب المعاصي ، ونافق من أرانا الهول وحطم آدميتنا وألبسنا طرح النساء ! ونافق في ذلك بالكتب والقصائد والمقالات ، وجاء اليوم يعيب أحداث الماضي التي هلل لها من قبل وصفق ، ثم أخذ ينقض ما قال وكتب ، فذلك شأنه ، أما نحن الذين حبسنا أقلامنا عن النقد ، وطوينا ألسنتنا عن الشكوى والاحتجاج ، واستعذنا بالله في قلوبنا مما يفعلون ، واكتفينا بالصمت الحزين ، فقد فعلنا ذلك بأنفسنا حين رأينا رأس الذئب الطائر .... وطوبى لمن اعتبر ، وخاب من فاتته حكمة الاعتبار !

وصدقني أيها العزيز حين أبدي لك إعجابي بهذه القلة التي مدحت الطغاة السابقين ولا تزال على عهدها تمدحهم إلى اليوم ، وتدافع عنهم ، وتهاجم من يهاجمهم ، وتذود عن أفكارهم ، وتسب من يلعنهم ، وهذا وفاء نادر يدل على قوة الخلق واستقامة النفس وعمق اليقين ، وهو وفاء موروث عن المصريين منذ قديم ، ولعلك تذكر أن أحد الفراعنة دعا يوماً إلى التوحيد ونبذ الآلهة الأسبقين ، فتحداه الأوفياء أصحاب الوفاء ، وأصروا على أن يعبدوا آلهتهم القدامى ، وفي مقدمتها معبودهم الخبيث ... العجل أبيس ؟ ! ...

فإذا كان النفاق في بعضنا ميراثاً أو طبعاً . فالوفاء أيضاً طبع فينا منذ آلاف السنين . فحرص الأنصار على تكريم ذكرى من يحبون ، وهياجهم لكل رأي سيء يكتب فيه أو يقال عنه ليس سوءة تلصق بهم بل مأثرة تذكر لهم . وإن كنا على النقيض منهم لا نؤمن ولن نؤمن بما يؤمنون ...

وإنك لتسأل هذه القلة من أنصار الماضي كيف تمجدون قوماً آذوا مواطنيكم ومنهم بعض آبائكم وبعض ذوي قرباكم ، في مالهم وشرفهم وعافيتهم ودينهم . وليس هذا فحسب . فإنهم كانوا يفتقرون إلى أصالتكم ومروءتكم ووفائكم . إذ كانت الخيانة طبعاً فيهم . فقتلوا بعض رفاقهم

بالسم . ومنعوا الطبيب من أن يعود زوجة عضو في مجلس الثورة وهي تحتضر حتى ماتت في حجره شهيدة وكان ذلك عقاباً له على التحذير من عواقب حرب اليمن التي استشهد فيها آلاف الجنود والضباط وبددت فيها ملايين الملايين دون أن يتحقق للطغاة النصر المرموق أو الهدف المنشود ، وحرموا آخر وكان رئيساً لمجلس الثورة من استقبال رفات ولده بعد أن قتلوه في ألمانيا ، وحظروا نشر نعيه في الصحف ، ومنعوا سرادق العزاء من أن يقام . وهذه أمثلة لعشرات من الخيانات التي وقعت للصحب والرفاق الذين قادوا المسيرة معهم . وكان لهم في تاريخ الثورة مكان الصدارة ، واقتسموا وإياهم شرف الجهاد ...

يقولون : دعنا مما لقي الأهل والأقارب وبعض أبناء الوطن من نخبة الناس وصفوة الرجال ، فإن متاعبهم أو عذابهم ضريبة مستحقة الأداء لتحرير البلاد مما كانت فيه من أدواء ، وإنه في سبيل الغاية تغتفر الوسائل وتقبل المبررات ! وما كان لمن آمنا بهم واعتقدنا فيهم إلا أن يأخذوا حياة هذا البلد بالحزم والعزم حتى يحققوا المد الثوري ، ويؤكدوا التغيير الجذري لمفاهيم المجتمع ، ويجعلوا ريادة الأمم لنا ، ويثبتوا المكاسب الاشتراكية التي أنقذت العامل من الذل والبؤس والفلاح من الرق والهوان ! ...

وأنا ، كأي فلاح ، وكأي عامل ، لم أستطع حتى يومنا هذا أن أفهم معنى كثير من هذه الشعارات التي استعبدوا من أجلها مصر والمصريين ، ولم أسجل لك هنا بقية الشعارات حتى لا أدير رأسك وأصيبها بالصداع ، فإنها شعارات لا يفهمها إلا مبتدعوها ، فهي ضحلة تفسيرها عسير ...

لقد آمنت بالاشتراكية في صدر شبابي ولا أزال أومن بها ، ومفهومي في الاشتراكية أنها تعني رفع مستوى الفلاح وحقه في الأرض التي يفلحها ، وتحمي حقوق العمال وتحصن هذه الحقوق بالتشريعات التي تزيد من نصيبهم في عرق جبينهم . وقد تحمست للمحاولات الكثيرة التي بذلت

لتطبيق هذه الاشتراكية بعد قيام ثورتنا في سنة ١٩٥٢ . غير أنني فجعت حين تسلل الانتهازيون إلى صفوف الثوار فانحرفوا بالتطبيق السيء عن تحقيق معاني هذه الاشتراكية العظيمة . فبعد أن كنا نرجوها اشتراكية للبناء والرخاء ، يسعد لها الفقراء ولا يخشاها الأغنياء . بثوا في نفوس الناس الرعب منها ، فصادروا . ظلماً . أموال القادرين المجتهدين دون أن تصدر منهم هم لفتة صادقة تأخذ بيد المعدمين العاجزين ، وبذلك أفقروا الأغنياء وأجاعوا الفقراء حتى تساوى الطرفان في البؤس والشقاء ...

وقد أرادت اشتراكيتنا أن تؤمن لأهل الكفاية والخبرة مكان الصدارة ليغيروا بعلمهم الواسع وعقولهم الناضجة مفاهيم المجتمع ، فإذا هؤلاء المعوقون يضعون « أوساط الناس » على رأس المواقع العلمية والفكرية والاقتصادية والسياسية في البلاد ، يتحكمون في مقادير النابهين والعلماء والفقهاء ، ويقلبون بذلك أوضاع الحياة ويحيلونها إلى مزارع للتجارب الفاشلة بلا تحرز أو حياء ...

وحرصت اشتراكيتنا على تذويب الفوارق بين الناس ، فقد زعموا للأجيال الصاعدة أن مصر عاشت أكبر مأساة ... الملايين عراة حفاة لا يملكون ما يسد الرمق أو يقيم الأود ، وبضعة آلاف يستمتعون بخيرات بلادنا ويملكون ريفها وحضرها ويسيطرون على مقدراتها واقتصادها ثم يفسدون في الأرض إفساداً ، ولم تستطع القوى الوطنية الحرة أن تغير هذه الأوضاع بالرغم من جهادها وكفاحها جيلاً بعد جيل . حتى تهيأت البلاد لثورة اجتماعية عارمة كان يمكن أن تحول الكنانة إلى بحيرة من الدم لولا أن أنقذنا الله سبحانه بثورة الجيش على الملك والاستعمار وهذا الاستغلال المقيت .

بيد أنهم قضوا على طبقة وخلقوا مكانها طبقة أخرى أشد جشعاً وقسوة وجهلاً على النحو الذي شرحته لك في إحدى الرسائل السابقات

وظهرت الطبقة الجديدة وسط شعارات كاذبة تزعم أن الناس أمام القانون سواسية كأسنان المشط ، وأنه ليس ليد أن تعلو على الأخرى إلا بالعلم والذكاء والخلق الطيب وما تقدم للوطن من خدمات ! ...

ثم دعت اشتراكيتنا إلى رعاية المال العام ، وهو مال الأمة التي حرمته عدة أجيال ، وحان الحين ليحس المواطنون ثماره من خيرات ومنجزات فماذا ألم بهذا المال من كوارث ، وكيف أصابه العجز والقصور بأشنع مما أصيب به من عجز وقصور يوم كان في يد المستغلين من ملوك وأمراء وباشاوات ؟ !

أحكي لك عن التسيب فيه وعدم الحرص عليه ، واعتباره مالاً خاصاً يجوز لصاحبه العبث به في سفه ودون حسيب أو رقيب . فما ينبغي أن يكون أهل الثقة ، وهم القوام على هذا المال ، موضعاً للمؤاخذة أو السؤال ! ...

وهذا المال العام الذي نظمت القوانين الاشتراكية الأصيلة طرق استغلاله حتى يفيض خيره ويعم الجميع ، قد استغله البعض إن لم يكن بالنهب والسرقة ، فبتبذيره على المظاهر الفارغة التي لا تستقيم مع تعاليم دولة اشتراكية تحظر على عمالها وموظفيها أي لون من ألوان الترف ، وتعتبر عدم الالتزام بذلك خيانة للأمانة تستوجب المساءلة والعقاب !

أليس تسيباً للمال العام هذا الذي يحدث في أضخم جهاز من ألوان الترف وقواعد البروتوكول وعلامات الأبهة ؟

إذا أقبل الفيلد مارشال رئيس الجهاز بسيارته ، أطلق سائقه (سرينة) السيارة وبدأت « التشريفة » ففرش البساط الأحمر على الدرج ! وركض الموظفون والمديرون ليكونوا في استقبال الرئيس عند وصوله إلى الجهاز ! ثم يمضي ساع خاص إلى المصعد فيطلق فيه المعطرات الزكية محلية أو مستوردة ، ليستقبل الرجل يومه بعبير ينعش الروح ، بينما يتولى ساعيان آخران إطلاق نفس المعطرات الذكية في حجرة الرئيس وهي أفخم حجرة

عرفتها المصالح والدواوين ، وهكذا يمضي « الغازي » ساعات العمل منشرح الصدر مقرور الأنف معتدل المزاج ! !

لقد شاهدت موكب رئيس الجمهورية وهو في طريقه إلى عمله ، ورأيت مكتبه في هذا القصر أو ذاك ، فحزنت لرئيس الجمهورية كيف فاته أن يكون رئيساً لهذا الجهاز ؟ !

أرأيت يا صديقي كيف يُحطم صرحُ الاشتراكية في قلب أكبر جهاز أنشئ لحماية المكاسب الاشتراكية ؟

أرأيت كيف يهتز إيمان الناس بأسس النظام الاشتراكي الذي كنا نحلم به أيقاظاً ونياما ؟

إن الاشتراكية تصرخ من هذا الترف الذي لا يناسب أمة يعرق أبناؤها من أجل رغيف ، ويبيعون خرقتهم إن مرض أحدهم واضطر إلى شراء دواء ؟

هنا يقف بعض المصريين وهم يتطلعون إلى « التشريفة » عند وصول رئيس الجهاز ، فيسرحون بخواطرهم إلى ربع قرن مضى حين كانوا يقفون كالخشب المسندة ينظرون إلى الملك في غدوه ورواحه ، ويتساءلون متى ينتهي العبث بأموال الناس ومقدرات الناس ؟ ! ....

حقاً : متى ينتهي العبث بأموال الناس ومقدرات الناس ؟ ! ....

وليس هذا الذي يحدث في الجهاز جديداً أو عجيباً أو غريباً على المواطنين ، فقد شاهدوا مثله في كثير من الأجهزة والمؤسسات والوزارات ، وقد حدث منذ عشر سنوات أن انفتحت لموظف في ليلة القدر (طاقة) في السماء ، فأصبح وزيراً لإحدى الوزارات ، فكان إذا ذهب إلى الوزارة أو خرج منها ، استقبله الفراشون والسعاة وبعض الموظفين وودعوه بالتصفيق الحاد ! وكان إذا اختلف إلى دورة المياه ، فرشوا له هو أيضاً بساطاً أحمر حتى تستكمل « التشريفة » رواءها وحتى يمضي الوزير يومه وهو في قمة الصفاء ! ! ..

وأنا حين أقص عليك هذه الحكايات لا أقصد أحداً لذاته ، وإنما أعطيك صورة لتسيب المال العام وظهور طبقة سادت طبقات ، توجهها شهوة العظمة وحب الظهور على حساب هذا المال العام ، فإن البسط الحمراء وتبديد وقت العاملين في التصفيق والاستقبالات ، ورش هواء المصاعد والحجرات بالمنعش من المعطرات ، كل ذلك محسوب على المكاسب الاشتراكية التي تفقد بمثل هذا كثيراً من الجهد والمال .

ونحن حين نفرض على الشرطة أن تقف في الطريق إذا سار رئيس الجمهورية في موكب عام ، فذلك واجبنا نحو أنفسنا ، فالرئيس هنا قطعة منا ، وحياته أمر يعنينا قبل أن يعنيه أو يعني بيته وأسرته ، لأننا اخترناه لقيادتنا بمحض إرادتنا ، وهو حين يمر بموكبه العام ، إنما يؤدي واجباً كلفناه به ضمن ما كلفناه من واجبات ومسؤوليات .

أما أن يعطل الطريق العام لأن الوزيرة في زيارة لحائكتها فذلك تدمير للديمقراطية والاشتراكية ، وردة إلى عهد العز والمماليك !

وقد عينت الوزيرة في الوزارة منذ ست سنوات ، وكان ذلك حدثاً عظيماً في تاريخ الحركة النسائية وحصاداً لجهاد هدى شعراوي ودرية شفيق اللتين أفنيتا عمرهما ليجيء هذا اليوم الذي تصبح فيه المرأة المصرية وزيرة بين الوزراء ...

وكان تصرف الوزيرة تسيباً للمال العام وتبديداً لجهد الشرطة الذين كانوا يمنعون المرور ويغلقون الشوارع حتى تنتهي من « البروفة » واستلام « الفساتين » ! وقد منعت الشرطة في إحدى زياراتها أستاذ أمراض القلب في الجامعة من عيادة أحد مرضاه ، لأن شقة مريضه لسوء الطالع تقع في هذا الشارع بل تجاور شقة الحائكة في البناء ؟ وشكا الطبيب المشهور للقصر الجمهوري ما كان ...

ويبدو أن هذه القصة قد نقلت إلى السلطان ، فأعفى الوزيرة في

أول تعديل وزاري ، ونقلها ـ بمعظم مخصصات الوزير ـ أستاذة في الجامعة متحدياً قوانين الجامعات التي لا تسمح بالتعيين في وظيفة « الأستاذ » إلا بشروط وقواعد لم تتوفر في الوزيرة إذ ذاك ، ولم تكن مصر قد عرفت بعد سيادة القانون حتى يلتزم السلطان بالقواعد والأصول ، كما حدث منذ عهد قريب وساد القانون فتعذر تعيين وزير التعليم العالي رئيساً لإحدى الجامعـات ، مع أن الرجل منذ ساعـات مضت كان الرئيس الأعلى للجامعات ؟ ! ....

وذهبت يوماً إلى وزارة التعليم العالي ، فإذا أمام المصعد عشرات أبى عامله أن يحملهم إلى طبقات البناء إلا أن يجيء الوزير أولاً ويستفتح بطلعته البهية مصعد الوزارة فيحمله وحده إلى مكتبه ثم يعود لينقل رعايا الوزير من سائر الناس ! !

حدثت معظم هذه المآسي قبل الهزيمة وإن كان القليل منها لا يزال وارداً في تصرفات بعض المسؤولين ، ولعل أثقلها على النفس تلك التي اتصلت بالجيش الشعبي الذي صدر قرار بتكوينه بعد هزيمة يونيه ، واختير بناء وزارة الحربية مقراً لقيادته ، ومع أن الجيش الشعبي يتكون من فدائيين وهبوا أرواحهم في سبيل الوطن ليردوا اعتباره ويرفعوا أعلامه ، ولا يعنيهم خاضوا المعارك في برد بريد أو حر حرور ، لا يؤذيهم طعام من الحنظل والطوب ، أو لباس من خرق الدمور ... ومع ذلك فإن قائد ذلك الجيش الشعبي أبى أن يمارس مسؤولياته إلا بعد أن يستكمل بناء القيادة رواءه بتركيب آلات لتكييف الهواء ، ودهانه باللون الذي يناسب ذوق القائد الرفيع ، وإعداد أصص الزرع لتصف على جانبي المدخل الخطير حتى تقر بذلك عينه إن غدا أو راح ! ! ....

ولم يكن هذا بمستغرب على القيادة في ذلك الزمان ، فقد كانت الحرب عندهم شعارات وأبهة ومناظر ، لذلك حدثت الهزيمة المنكرة

ولطخت جبين مصر بالعار ، وبنفس الروح بدءوا الاستعداد للحرب والكفاح من جديد ، فأصر قائد الفدائيين على أن يدير المعركة الشعبية من حجرة مكيفة الهواء ، ومن بناء زاهي الألوان انتثرت على جنباته أصص الورد والياسمين ؟ ! ! ...

وكم قاست مصر الجريحة من أصحاب الشعارات ... والخيانات ؟ ...

وأذكر أني دعيت لتناول العشاء عند واحد من مراكز القوى الطيبة المؤمنة السمحة النادرة المثال في ذلك الزمان ، وفي كل زمان ، ويقع بيته أمام سفارة في حي الجيزة – فإذا الشرطة تحاول منع سيارتي من الوقوف أمام بيت صاحب الدعوة بحجة أن السيد وزير الداخلية يتناول عشاءه في سفارة لبنان ؟ ! وعجبت أن يحرم عشاء الوزير في السفارة سائر الناس من العشاء ، وسمع صاحب الدعوة المشادة التي قامت بيني وبين الشرطة العاجزة عن رعاية الأمن إلا أمن الوزراء ، فاتصل بالوزير في السفارة واحتج على ذلك الإجراء ، فجرى الوزير إلى الباب وأمر بوقف هذه الملهاة ، فقد خشي الرجل أن تُصَعَّد هذه الحادثة إلى « فوق » وهو يعلم أن « فوق » لا يرحم إن غضب أو استاء ....

وإنك لتذهل لو علمت كيف تغلق أبواب الوزراء دون أصحاب الحاجات ، فأنت مطالب بأن تبرز بطاقتك عند الباب ، وعند مطالع الدرج ، وعند مكتب الاستعلامات ، وعند ممثل الأمن ، وعند ساعي السكرتير ، وعند سكرتير السكرتير ، مع أنك حين تُبنى بواحدة على يد مأذون أو تسجل عمارة في الشهر العقاري أو تصرف من البنك شيكاً بعشرات الألوف من الجنيهات ، لا تقاسي بطاقتك بعض هذا العذاب الذي تقاسيه وأنت في الطريق إلى لقاء الوزراء ... هذا إذا حدثت المعجزة وتفضل عليك الوزراء باللقاء ؟ ! ....

وأذكر أني أرسلت سنة ١٩٣٨ في بعثة إلى فرنسا على نفقة حكومتها

لاستكمال بحث أعده للماجستير والدكتوراه ، وحدد لي موعد ألتقى فيه وزير التعليم إذ ذاك ، وجلست في حجرة كبيرة كان يدخل إليها بين آن وآخر رجل أشيب في يده ورقة ينادي منها على اسم واحد من الزوار ثم يصحبه إلى حجرة مجاورة ، ويغيب دقائق ثم يعود إلينا ويستأنف النداء ....

ونادى الرجل على اسمي ، وصحبني معه إلى الحجرة المجاورة وأجلسني في رقة وأدب ، وسألني عن حاجتي ، فقلت له إني على موعد مع وزير المعارف فقال الرجل في تواضع وهدوء ... أنا وزير المعارف ! ...

وكانت فرنسا في ذلك الوقت تكاد تملك نصف العالم ، ولكنها كانت تملك أيضاً الرقة والأدب ، ولا يعرف وزراؤها التكبر والتجبر والغرور والإسراف ، ولا ذلك الإحساس البغيض عند بعض وزرائنا بأن الوزارة وما فيها ومن فيها ملك خاص ورثوه عن الآباء والأجداد ؟ ! ! ...

ولم تكن فرنسا في ذلك الوقت دولة اشتراكية ، ولا يدعي نظامها أنه نظام قام لخدمة العمال والفلاحين ، ومع ذلك كان وزراؤها أبسط من العمال وأرق من الفلاحين ، لأنهم يعلمون أن الدنيا دول ، وأنهم اليوم وزراء وغداً في البيت أو الطريق ، وأنهم يعرفون الحكمة العربية الرائعة التي تقول : لو دامت لغيرك ما وصلت إليك ؟ ! ....

ونحن أيضاً على أبواب انفتاح عظيم ..

وقبل أن أتغنى هذا الانفتاح وأرحب به وأزكيه ، أحب أن أسجل لك رأيي في جانب منه ، بل لعله أهم جانب فيه ، فقد قال لنا الرئيس السادات في ورقة أكتو ر ، وفي غيرها من خطب وأحاديث ، إن الانفتاح ليس مقصوراً على السوق التجارية ، أو تشجيع المال الخاص ، أو الترحيب بأموال إخواننا العرب وأصدقائنا الأجانب ، وإنما الانفتاح يعني أول ما يعني ، الانفتاح الفكري بحيث يكون المواطن حراً إذا تكلم أو كتب ، حراً إذا اختلف معنا ، حرية النصير إذا أيَّدَنا ، وأنه فيما يرى من رأي يجب أن يكون آمناً على يومه وغده ...

ومثلي قد لا يجد صحيفة يكتب فيها رأيه ، وقد يكون لظروف الحياة دخل في انصرافي عن العمل في الصحافة مع بعض الصحب الذين يعملون فيها بعد أن نالت حريتها ، وأصبحنا نقرأ شيئاً قريب الشبه جداً بما ينشر عادة في الصحف الحرة التي لا تخضع لرقابة الحكومة أو بيوت الإعلان أو أصحاب الشركات .

ولكن مثلي حين يُصفِّدون قلمه ، ويقيمون عليه الحراسة ، ويرونه غير جدير بالفطام ! سوف تتهاوى أمامه كل المنجزات والقرارات التي جاءت في أعقاب ثورة التصحيح ودستور ١٩٧١ وورقة أكتوبر وتصريحات المسؤولين وخطبهم وأحاديثهم عن حرية القلم وغيرها من حريات ...

وهل من المنطق أن أرى جميع الأقلام الصحفية ، وهي أقلام زملاء لي ، أو تلاميذ علمتهم أو علمت أساتذتهم ، تستمتع بالحرية دون قلمي ؟ وأنني حين أسجل أفكاري وآرائي لا بد أن أعرض ذلك على رقيب عاقل أو مجنون ، عالم أو جاهل ، طيب أو خبيث ، ليقول رأيه في هذه الأفكار والآراء ، وله أن يجيزها أو يرفضها ؟

إن ذلك يعني عندي قمة الانغلاق ، ولا يمكن أن أصدق أو أعتقد أن هناك أملاً في أي انفتاح يرجوه السادات لهذه البلاد ! ...

فإذا كان ولدي الذي أنجبه من صلبي لا تجوز له الحياة إلا أن يعرض على مصنف للأحياء ، ليطلب مني قطع خنصره أو قط جزء من لسانه ، أو قطم بعض أنفه ، أو فقء إحدى عينيه ، أو بتر إحدى قدميه ، ليتفضل ويأذن بعد ذلك للصغير أن يعيش بكل هذه العاهات ، فإني أفضل لهذا الولد أن يختفي من الوجود حتى لا أساهم في إفساد ما فطر الله الناس عليه من صور مختلفة ، لا يجوز لمخلوق أن يعبث بها ، ويشاركه سبحانه وتعالى فيما أراد للناس من أشكال ...

إن قصة هذا الولد الصغير ، هي قصة الكتاب الذي يجيء من بنات أفكاري ، ومن عصارة ذهني وأعصابي ، ومن دمي وروحي ، ليقول فيه الرقيب احذف هذا الفصل أو ذاك ، أو اشطب هذه العبارة أو تلك ، فإني أربأ بهذا الكتاب أن يطبع وينشر ، فسوف يكون كتاباً عاجزاً كولدي الكسيح ... وأفضل أن يبقى في الظلام الذي نشأ فيه حتى يحين الحين ويصبح الانفتاح الفكري حقيقة واقعة ، لا شعاراً كسائر الشعارات ..

إن المحك في صدق نوايا أصحاب الانفتاح عند الأحرار من أصحاب الأقلام هو المزيد من حرية الفكر والتعبير ، ونحن لا يعنينا أن يشملنا الانفتاح برزق موصول أو مال موفور ، فذلك عَرَض يفرح له التجار وأصحاب الأعمال ورجال المال ، أما نحن أصحاب الأقلام فعلى استعداد لنساهم في هذا الانفتاح بأن نقدم للداعين له والقائمين على أمره كل ما نملك في دنيانا ، وهو لقمتنا وخرقتنا ولا نطلب عوضاً عنهما إلا الحرية لأقلامنا وأفكارنا ، فذلك هو زادنا وثراؤنا ، وليس لنا بعده زاد أو ثراء ...

وإنه لما يؤذي الأحرار أن يكرر الرئيس السادات منذ أسابيع مضت ما دأب على قوله من أن حرية القلم يجب أن تسود مجتمعنا مهما يكلفنا ذلك

من ثمن ، ثم نجد التطبيق لا يتجاوب مع مضمون ومفهوم ما يدعو إليه الرئيس ، بل العكس صحيح إذ لا تزال حرية الكلمة حبيسة في أكثر من موقع ومكان .

إن الكتب والبحوث والدراسات تخضع للرقابة في خمس جهات ، فهي موجودة في مصلحة البريد ، وفي وزارة الإعلام ، وفي المباحث العامة وفي دار الكتب ، وفي مجمع البحوث الإسلامية ، وربما كانت في مواقع أخرى تترصدها عيون السلطان .

ومن الجديد في التضييق على حرية الرأي والفكر ، قرار صدر بأنه لا يجوز للمواطن أن يستورد كتاباً إلا بموافقة مسؤول في الجامعة أو مسؤول في وزارة التعليم ! وحتى الجامعة التي علمتنا حرية البحث تحولت إلى طاغوت جديد يراقب الكتب والأفكار ، ويفرض على العلماء والمفكرين أن يستأذنوه إن فكروا في قراءة كتاب ، وله أن يحرمهم هذا الحق إن لم يكن الكتاب على هواه ! ...

وحتى الرسائل التي أبعث بها لك ، لا تنجو من الرقيب إن شاء رقابتها ، وقد كان ذلك مفهوماً في عهد مضى كنا نخجل فيه من تعليقات الأجانب على الأسلوب البوليسي في رقابة الناس وفضح أسرارهم ، وكم كان يؤلمنا أن تقول لنا عاملة التليفون في لندن ، إن القاهرة معك .. ونلفت نظرك فإن محادثتك تسجل هناك !

كانت هذه النصيحة بقدر ما كانت تحمل من إنسانية ، كانت تحمل أيضاً صورة بشعة لنظام الحكم في مصر الذي كان دأبه التصنت على الناس والتلصص على حركاتهم وسكناتهم حتى يأخذهم ولو بزلة لسان ! ..

كان ذلك أمراً طبعيـاً يوم كانت تسيطر على مقدرات مصر الطغمة الباغية ، ويوم كان الطغيان قاعدة الحياة فيها ، أما بعد ثورة التصحيح ودستور ١٩٧١ وشهر أكتوبر الذي سالت فيه دماؤنا لحماية حرياتنا ،

وبعد التفكير في تطوير الاتحاد الاشتراكي أو تعديل نظامنا السياسي بغية مزيد من الحرية والانطلاق واحترام الرأي الآخر ، فإن ذلك يعني الانغلاق في جانب من حياتنا يهدد الانفتاح في سائر الجوانب .

إن بعض الرقباء من تلاميذنا يراقبون الكتب التي يؤلفها أساتذتهم من أصحاب الكراسي في الجامعات .

إن كتب التكنولوجيا لا بد من اعتمادها من هذه الرقابات منفردة أو مجتمعة .

وحتى كتب الموسيقى والطهي ورفو الثياب وشغل الإبرة وإصلاح الراديو والتليفزيون ، وما على غرارها من كتب في حاجة إلى رقابة الرقيب هنا وهناك .

ترى ما حاجة القوم إلى بقاء هذا الانغلاق في عصر سيادة القانون وإطلاق الحريات وشعار الانفتاح يسيطر على جميع الاتجاهات ؟

يقولون :

قد يصبح الدين في خطر لو ترك للاجتهادات ...

وقد تنهار الأخلاق لو سمح للكاتب أن يبرز عورات المجتمع أو يصور ما فيه من مفاسد وموبقات .

وقد يتعرض المؤرخ لسيرة بطل فيزري بقدره ، ونحن هنا لنحمي البطولات ؟ ..

ولم أسمع تفسيراً منهم لرقابة سائر الكتب فيما لا يمس الدين والأخلاق ووهم البطولات !

وإنك لتعلم أن الدين لا تحميه كتب ولا تهز الإيمان به كتب ، فالأديان عقائد في الأعماق استشهد في سبيلهاالملايين يوم لم يكن هناك رقابة أو رقباء .

وإنك لتعلم أن كشف المستور من سوء الأخلاق هو السبيل الوحيد لتنقية الأخلاق من الشائبات ...

وإنك لتعلم أن حماية البطل لا تكون في مصادرة رأي ينقد هذا البطل ، فقراقوش لم يهجه أحد بحرف في حياته ، ومع ذلك لم يستطع صنائعه أن يحولوا دون أن يكتب في عهده الأسود أكثر من كتاب ، ولم ينج من حكم التاريخ كصورة مروعة للحاكم الطاغية وقد تتلمذ عليه عبر القرون كثير من أصحاب البطولات ؟ ! ..

وحتى يصح الصحيح فيما أزعم عن الرقابة والرقيب في قضية الانفتاح الفكري ، لا بد أن أسجل أن يد الرقابة قد استرخت تجاوباً مع المناخ الذي نعيش فيه ، وأن المسؤولين عنها ينفذون قانونها في أضيق الحدود حتى لتحس أحياناً أن البلد ليس فيه رقيب ، وأن الرقابة تكاد تكون هيئة استشارية ولم تعد ذلك الذئب مفترس الآراء والأفكار ...

ولكن الرقابة من حيث المبدأ شيء بغيض ، ولا توجد إلا في البلاد الرجعية أو الدكتاتورية أو المتخلفة ، وهي لا تنتعش إلا في الظلام ، وإذا كانت الصحافة قد تحررت منها وكذلك أحاديث الهاتف وبرقيات المراسلين ، فإن بقاءها سيفاً مسلطاً على مؤلفي الكتب من علماء وأدباء وأساتذة جامعيين علامة سيئة تنقض ما تسعى إليه الدولة من انفتاح في كل الميادين ، ووثيقة حية على أن نظام الحكم لم يخل بعد من مخلفات الماضي وسلبياته ، وأنه لا يزال هناك من يعنيه أن تبقى كلمة الحق في قيدها القديم ، وأن الحراسة وإن رفعت عن أصحاب الأراضي والعمارات ، فإنها لا تزال مفروضة على أصحاب العقول والأفكار ، وأن الإنسان المصري لا يزال في جانب من نفسه معتقلاً في جهاز اسمه الرقابة وتحت بصر حارس اسمه الرقيب .

وإني لسعيد أن ينظر المسؤولون لسائر الشؤون في بلادنا هذه النظرة

المتفتحة ، فيؤيدون الاقتصاد الحر بعد سنوات من التزمت والانغلاق ، وبعد توجيه فطير لاقتصاد البلاد ، بيد أن هذا الانفتاح في حاجة إلى انفتاح ! انفتاح في اختيار أدواته وعماله ، وفي اختيار المناخ المناسب لتحقيق الغاية منه ، فليس من المعقول أن يتم هذا الانفتاح ، سواء كان سياسياً أو اقتصادياً على يد نفس الوجوه التي مثلت في بلادنا أبشع صور الانغلاق ....

ليس من المعقول أن يتولى أمور السياسة من كان يرى نواب الشعب نمراً أو أصفاراً على الشمال فيقدم لهم القوانين المبتورة أو يعلن عليهم المشروعات الفاشلة ، فإن اعترض معترض غاب وراء الأفق ، وإن أجمع الأعضاء على فكرة مخالفة لا يهضمها هدد المجلس بالحل والتسريح ! ...

ليس من المعقول أن تفشل بعض المؤسسات السياسية على يد جماعة من الناس ، كما أثبتت ذلك الورقة الخاصة بتطوير الاتحاد الاشتراكي ، ثم يطلب إلى هؤلاء الناس أنفسهم ، وهم أئمة الفشل في هذا الميدان ، أن يطبوا للأمر ويبلغوا به مدارج النجاح !

إن فاقد الشيء لا يعطيه ! ...

ليس من المعقول أن تلقى أمور الاقتصاد المتفتح إلى أيدي من كانوا رواد الاقتصاد المنغلق وركائزه وأصحاب الأصالة فيه ، والذين قادونا إلى هذا الخراب الذي نضج منه ، والذي يحاول الرئيس علاجه ، كما يعالج سائر النكبات التي حلت ببلاده في شتى مناحي الحياة .

إن السادة أعلام الاقتصاد المنغلق والذين نجد بعضهم مكلفاً بتصفية أساليب هذا الاقتصاد ونقل البلاد إلى اقتصاد حر متفتح ، يعز عليهم أن يحملوا نعش اقتصادهم القديم إلى مثواه دون أن يثيروا التراب على الطريق ، فهم يحاولون خلق اقتصاد جديد لم تعرفه أمة من الأمم في أي عصر من عصور التاريخ ، وتراهم يقننون القوانين المشجعة على جلب

رؤوس الأموال الأجنبية والعربية ثم يحشرون في القانون مادة غامضة ، أو يطلقون حديثاً أو يذيعون رأياً ينقض روح القانون ، وهي سياسة خبيثة منهم إن لم ترد المقبلين بأموالهم على أعقابهم ، فهي على الأقل تزعزع ثقتهم وتهز إيمانهم بجدية هذا الانفتاح ، وتقف بهم ليدرسوا ويتدبروا في جو من القلق والخوف ... ونتائج ذلك كله معروفة ، فإن رأس المال كما علمونا جبان ! .

وإنك إن سألت عن الأسباب التي دفعتهم إلى وضع بعض العوائق في سبيل الانطلاق ، قالوا إننا نقنن لاقتصاد نابع من أنفسنا ، اقتصاد فذ ، لا هو شرق ولا هو غرب ، اقتصاد يحمي الإنسان من ظلم أخيه الإنسان ؟ !

إن الاقتصاد عند جميع الدول ، وعند جميع الشعوب ، اقتصاد منفتح أو اقتصاد منغلق ، والاقتصاد المنفتح ، أو الانفتاح في الشؤون الاقتصادية لا يتماشى أبداً مع الشعارات العتيقة الجوفاء التي دمرت اقتصادنا وبذرت بذور الشر والخيانة في نفوس البسطاء ، فقد سمعنا من المسؤولين أنهم يبذلون الهمة لإنجاز المهمة في تزويد مصر بأموال رجال الأعمال من عرب وفرنجة ، ثم قالوا ، ولا يعني ذلك اقتصاداً حراً ، وإلا عرضنا الإنسان لاستعباد أخيه الإنسان ! ...

يريدون أن نعود مرة أخرى ونأكل ونتاجر ونتفتح بالشعارات لا بالإنجازات فأين هذا الاستعباد المعرض له الإنسان من أخيه الإنسان ؟ أليست هناك قوانين تحمي العمال من طغيان بعض أصحاب رؤوس الأموال ؟ إن لم تكن هذه القوانين رادعة فشرعوا ما شئتم من القوانين التي تزيد من حماية العامل وتحفظ حقوقه في الراتب وساعات العمل وغير ذلك من ألوان الحمايات ، بشرط أن تعفونا من هذه الشعارات التي تضر ولا تنفع ، ويضطرب لها اقتصادنا وقد يضيع ، فإن بقاءه على ما كان عليه من انغلاق أفضل كثيراً مما يدعونا إليه من اقتصاد منغلق منفتح ، فالاقتصاد

المنغلق معروف للناس ، وعلى ضوئه عاملونا ومدوا لنا يدهم أو قبضوها عنا ..

كم تسعد مصر لو « اقتصد » السادة أعلام اقتصادنا قليلاً في الكلام ، فما ساهم أحد قط بماله في اقتصاد حصيلته كلام في كلام ! ...

إن الحاكم يستطيع أن يسوس مواطنيه بالشعارات الضخمة والبيانات الفخمة سنة أو سنوات حتى يضيق الشعب فينبذ هذه الشعارات والبيانات التي انتهت به إلى الفقر والإملاق ، أما الاقتصاد الحر فحساب وأرقام ، إن حاصرته بالمد الثوري والتغيير الجذري والتلاحم الطبقي والمكاسب الثورية ، أفزعته ، لأنها لغة قد أسيغها أنا وأنت ، أما صاحب رأس المال فسوف يفر بماله من هذا الحصار حتى لا يضيع في متاهات هذه الفوازير من الشعارات ! ...

ولست أعني في قضية الانغلاق والانفتاح فئة خاصة من الناس ، إذ ليس من الضروري أن يكون المنغلقون وزراء ... يكفي أن يكون ساعي مكتبهم منغلقاً لتفسد سياسة الانفتاح في هذا الموقع أو ذاك. إن هذا الساعي بتقاعسه عن نقل الأوراق من مكان إلى مكان قد يدمر مشروعاً من المشروعات ، وهؤلاء المنغلقون موجودون في كل موقع ، من السعاة وصغار الموظفين إلى المديرين والوزراء .

إن أصحاب الأعمال من أجانب وعرب ، يلقون جميع الأبواب مغلقة عندما يبدءون عملهم في إنشاء شركة أو تحضير لمشروع ، فإن عليهم أن يقصدوا عدة وزارات ومصالح لتنفيذ مشروعاتهم أو إنشاء شركاتهم ، وفي كل هذه الجهات طواغيت الانغلاق مطلقة أيديهم لإفساد نوايا الدولة في انفتاح ينقذ اقتصادنا ويخلق الرواج والازدهار .

لو ان المسؤولين عن الانفتاح قد صدقت نواياهم ، وتفتحت قلوبهم وعقولهم لخدمة الوطن حقاً ، لجمعوا كل من بيدهم مسؤولية الانفتاح وتيسير خطواته في حجرة واحدة ، يدخلها صاحب العمل ويخرج منها بعد

ساعة وقد حصل على كل ما يسوغ له إنشاء شركته أو البدء في مشروعه ، دون أن تحطم أعصابه من الروتين ويصاب بالدوار ..

وليكن على رأس هذه الحجرة وزير ، اسمه وزير الانفتاح ... وعلى وزير الانفتاح أن يكون منفتح القلب والعقل ، دمث الخلق ، دقيق الحس رقيق الحاشية ، وعليه أن يستعين في « حجرة الانفتاح » بموظفين من لونه وثوبه لا يعرفون العجرفة ولا يركبهم الغرور وسوء الأدب في لقاء الناس .

أنا لا أدعي لنفسي حصافة أهل الاقتصاد ، بل لا أزعم أبداً أنني مارست التفكير في شؤون المال على أسس من اقتصاد مغلق أو مفتوح أو نجحت يوماً في تثمير الدانق والسحتوت ، غير أنني مواطن له أصدقاء في كل بلد عربي يملكون الملايين ، ويحبون مصر ويريدون لها الرفعة والمجد وحسن المآل ، وهذا الذي أنقده أو أدعو إليه هو رجع الصدى لما يقولون ، وما أظنهم فيما يقولون أو يحكون قد جاوزوا الحقيقة أو أخطأهم الصواب .

إن الانفتاح لا يعني أموالاً تدخل من الشرق أو الغرب ، بل إن الانفتاح يفرض أول ما يفرض عقولاً نيرة ترتب له من الداخل أسباب النجاح فتكون القوانين مرنة وليست صلدة متحجرة ، فلو أن عميلاً وظف أمواله في توريد الأدوية النادرة التي تحتاجها مصر ولا تصنع فيها ، وخلت تعبئتها من شرح لها باللغة العربية وهذا أمر مخالف للقانون ، فلا يجوز أن يقف القانون دون دخولها إلى البلاد ، وعلاج ذلك سهل وميسور بطبع التعليمات لها في بلادنا وتوزيعها مع كل دواء .

وضربت مثلاً بالدواء ، لأننا تلقينا أدوية هدية من ألمانيا الغربية ولأن شرح الدواء غير مكتوب باللغة العربية حجزتها الجمارك حتى غيروا القانون ، وتغيير القانون قد احتاج إلى شهور تضاف إلى شهور تحطمت فيها أعصاب المرضى في انتظار الدواء الذي يشفيهم مما هم فيه من أدواء .

لا ينبغي أن يكون القانون حماراً ، ونحن قادرون على أن نحميه من هذا المصير .

لا بد أن يطمئن أصحاب الأموال إلى أن مصر لا يهددها الطاعون نتيجة إهمال المسؤولين في تنقية مياه الشرب !

لا بد أن يطمئن الممولون للصناعات والتجارات ، بأن الجيل الجديد سيتولى نشاطهم قوياً معافى وليس مصاباً بشلل الأطفال نتيجة إهمال المسؤولين في استيراد مصله !

لا بد أن يطمئن أصحاب رؤوس الأموال على أن الذين يحطمون نشاط مصر الاقتصادي بخياناتهم وجناياتهم يلقون مصيراً يكون فيه عبرة لكل مجرم أثيم .

ثم يحتاج الانفتاح إلى أخلاق ... ويا ويل شعب ينفتح من غير أخلاق ...

القاهرة في ٣٠ مايو

أنا مع الحكومة في أن « الانفتاح » لا يعني أن السماء ستمطرنا ذهباً وفضة ..

وأنا مع الحكومة في أن هذا الانفتاح لن تبين آثاره الطيبة ، وتتضح نتائجه المواتية قبل شهور وسنوات ..

وأنا مع الحكومة حين تشكو قلة الأنصار بين الصحف والمجلات ، وأعتب معها على أصحاب الأقلام في نقدهم اللاذع لسياستها المتصلة بالانفتاح . وتبكيتهم لاختفاء كل معالم الانفتاح في شتى نواحي الحياة وخاصة في شؤون التموين الذي يعني الملايين من الناس ، الملايين التي لا يفرق معظمها بين الانغلاق والانفتاح ، وإنما يعنيها أن تجد حاجتها في الأسواق ، فذلك عندها الانفتاح كل الانفتاح ..

وأنا ضد الحكومة لأنها تخفي الحقائق عن الشعب لتحمي سنوات الانغلاق وأصحاب هذه السنوات ، من الجرائم التي ارتكبوها فسببت لنا الجوع والحرمان .

إن ذكر الحقائق للشعب ، إلى جانب أنه فضيلة من فضائل النظام الديمقراطي وواجب محتوم على حكوماته ، فإنه سينقذ « الانفتاح » من السقوط في ضمير المواطنين ، فسوف يعتبرونه شعاراً جديداً كسائر الشعارات التي سقطت أمام وطأة الحقائق المرة التي عاشها الشعب جيلاً من الزمن ، يرى الجنة سراباً ، والوعود أحلاماً ، والقوة ضعفاً ، والعدل ظلماً ، والمد جزراً ! ونظام الطبقات لا على حاله ، بل أسوأ مما كان عليه حاله ! ...

يجب على الحكومة أن تصارح الشعب بأسباب الضنك التي تطوي حياته إذا أصبح أو أمسى ، وتصدقه القول فيما تروي له من أسباب عذابه ،

وتدعم ذلك بالوثائق ثم بالأرقام ليعلن براءة هذه الحكومة مما يلصقه بها خصومها من عجز وقصور .

ولست مع الحكومة فيما زعمت من أن أزمة التموين وعجزها في إصلاح أدوات الحكم ومرافق البلاد يرجع إلى حرب أكتوبر ، فحرب أكتوبر إن كلفتنا مالاً ورجالاً ، فهي على الأقل ردت إلينا الروح وفرضت على الدنيا احترامنا ، وهو جزاء يساوي ما كلفتنا هذه الحرب من مال ورجال .

يجب أن تذكر الحكومة للشعب أن البلاد تورطت في حربين قبل حرب أكتوبر ، في سنتي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، وأن آلاف الملايين صرفت على هاتين الحربين ، وأن مصر هزمت في كلتيهما ، وإن صورت الأغاني والأناشيد أن النصر كان لنا في الأولى ، وعجزت نفس الأغاني والأناشيد عن تحقيق أي نصر في الثانية !

إن الحروب ، سواء جاءت بالنصر أو الهزيمة ، لا بد أن تترك آثارها على الشعوب المتحاربة ، فتضطرب مجتمعاتها سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ، وأقسى هذه الآثار ، افتقار الشعوب لحاجاتها العاجلة كالطعام والكساء .

يجب على الحكومة أن تبصر المواطنين بهذه الحقيقة ، وتذكر لهم الأمثلة عند سائر الأمم والشعوب ، فإن المثال هنا سوف يكون بلسماً يطب للحياة الخشنة التي نعيشها .

إن إنجلترا التي خرجت من الحرب العظمى الثانية منتصرة بعد أن بذلت في سبيل هذا النصر كل دمائها ودموعها ، أمضت عقب تلك الحرب بضع سنوات كادت أن تموت فيها جوعاً ، وحرم شعبها من البيض ، وهو وجبته الرئيسية في الصباح إلا من بيضة واحدة تقررت للمواطن مرة كل شهر ثم مرة كل أسبوع ، وقد كانت الأيام تمر فلا يجد المواطن

فنجاناً من الشاي يحتسيه ، وإن وجده افتقد السكر فيه ، وكاد أن يحرم هذا الشعب من اللحوم والزبد والألبان والصابون والكبريت ، فكان لا يراها أسابيع وأسابيع ، إذ أصبحت من ألوان الترف ، مثلها مثل الكساء فقد اختفت الأقمشة من الأسواق ، واستعان الإنجليز بثيابهم القديمة التي عبروا بها سنوات الشدة ، حتى عاد الرخاء رويداً ثم حثيثاً ، وبذلك انتصر الإنجليز على أعدائهم ثم على أنفسهم ، وكان النصر على أنفسهم هو النصر الخليق بالرواية والتخليد .

ومات آلاف من الألمان جوعاً بعد أن هزمتهم جيوش الحلفاء في تلك الحرب ، وحطمهم العرى والعراء ، واقتاتوا على فتات ما تخلف من طعام الجيوش الغازية ، وتردت حالهم حتى كانت المرأة تبذل نفسها في سبيل لقمة أو سيجارة أو فنجان قهوة أو كوب شاي .

وعاش الشعب الألماني في مرارة الحاجة سنوات بعد سنوات ، بيد أنه شعب أصيل ، ما لبث بجهده وجهاده أن استرد مكانته واعتباره ، وانتصر في معركة السلم انتصاراً محا كل آثار هزيمته في ساحة الوغى ، ثم استعاد مقامه العظيم بين الأمم والشعوب ، وثبّت اقتصاده في ميادين التجارة والمال ، حتى أصبحت عملته أقوى عملة في الأسواق الدولية ، بل بلغ من قوته الاقتصادية أن مدت إليه الولايات المتحدة يدها في إحدى أزماتها تسأله قرضاً تستعين به على ما يواجهها من مسؤوليات !

وقد انتصر الألمان على الفرنسيين في سنة ١٨٧٠ ، واحتلوا شطراً من الأراضي الفرنسية وفي مقدمته العاصمة باريس ، واشترطوا للجلاء عن العاصمة وسائر المناطق التي احتلوها أن يسدد الفرنسيون غرامة ضخمة ينوء بها كاهل الحكومة وحدها ، فما كان من النساء إلا أن قصصن شعورهن الجميلة ، وبعنها وقدمن حصيلتها للحكومة لتستكمل حاجتها من المال وتسدد الغرامة المفروضة وتنقذ البلاد من الاحتلال ! ...

هنا تجاوبت الشعوب الحرة مع حكوماتها ، لأن حكوماتها لم تخف الحقائق عنها ، بل بسطت هذه الحقائق مجردة من الزيف ، لا تجامل عهداً مضى ، ولا تحمي على حسابها بطولة مزعومــة حطمت أعصاب المواطنين حتى خلت من وجوههم النضارة واختفت من على شفاههم البسمات .

إن نساءنا على استعداد لبيع شعورهن لو صدقت حكومتنا مع الناس ! .

إن حكومتنا ـ للأسف الشديد ـ لم تعرف كيف تواجه شعبنا بما أصابنا من نكبات كانت السبب المباشر لما نحن فيه من فقر وإدقاع .

لم تقل له إن عهداً مضى بَذَّر مئات الملايين ، ولا أقول الآلاف ، في حرب اليمن ، وهي حرب لم يكن لنا فيها ناقة ولا جمل ! ....

لم تقل له إننا كنا سفهاء حين وظفنا عرق المواطنين نبذره في الكنغو وفي سائر بلاد العالم لنبني مجداً في الهواء !

لم تقل له إننا زودنا الصحف المأجورة في بيروت وغيرها بملايين الجنيهات وبسطنا اليد لسفاراتنا بملايين أخرى لتدبير الانقلابات ، وجعلنا منها مكامن لخطف الأحرار أو التخطيط للاغتيالات ، مسترشدين بسيرة أكبر قاطع طريق عرفته مصر ... « الخُط » وكانت له في صعيدنا مكامن دوخت أقدر الحكومات ....

كل ذلك لنسوِّد عصاماً ، ونفس عصام لم تعرف قط الكر والإقدام بل لم تعرف إلا الفر والنكص على الأعقاب !

لم تذكر حكومتنا لشعبنا أن مصر عاشت نحو عشرين عاماً لم تنشر فيها ميزانية الدولة مرة واضحة كاملة ، ذلك لأن قدراً كبيراً من هذه الميزانيات كان يحجب عن الناس وعن المؤسسات الدستورية لأنه كان يصرف على المباحث والمخابرات وعلى ما يتبعها من سجون ومعتقلات ! وكانت تنشر بين سنة وأخرى ميزانيات المؤسسات والشركات ومعظمها

ميزانيات وهمية لا تمثل الحقيقة في شيء ، وكان لكل منها ميزانيتان ، واحدة خاسرة لا يعرفها إلا المدلسون من الرؤساء ، والثانية رابحة توهم الناس بأن كل شيء على ما يرام بالرغم من أن كل شيء في مصر لم يكن قط على ما يرام !

ولم تذكر حكومتنا لشعبنا هذا الترف الذي كان يعيش فيه بعض المصريين .... لقد رصدت الملايين لعلاج صداع أو زكام البطانة والحواريين من مدنيين وعسكريين في لندن وباريس وفيينا وروما وبرلين ، وكان المريض المدلل تصحبه عادة زوجه وأولاده وأمه وخدمه وحشمه ، وأحياناً يختار بعض جيرانه كمرافقين ! وكل هؤلاء يعالجون أو قل يسيحون بعرق الكادحين من عمال وفلاحين ، ومن الضرائب التي تحصل عليها الدولة من (الشطار) المجتهدين ، وكنا إذا سمعنا بذلك وتأذينا ، قيل لنا يا لكم من ناكرين للجميل ! .... هؤلاء هم الصف الثاني في سيمفونية الثوار الذين جاءوكم بالمد الثوري ، وحطموا المجتمع الطبقي ، وحققوا لكم المكاسب الثورية ، وأنقذوا الإنسان من ظلم أخيه الإنسان ؟ ! ....

ولست أدري لم لا تقول الحكومة للشعب إن المخصصات الضخمة المقررة للأحياء والأموات قد بلغت الملايين في كل عام ، وأن آلافاً ـ كما يزعمون ـ يتقاضون راتب الوزير ومخصصاته ، أو أكثر من راتب الوزير في بعض الأحيان ، دون عمل يؤدونه ، مثلهم في ذلك مثل الذين عاشوا في عهود مضت وسموهم تنابلة السلطان ! ....

ويذكرون في تفاصيل هذا الإسراف أن عدد الوزراء ، بين وزير عامل ووزير بلا وزارة ، ولكن بمكتب وساع وسيارة ! قد أصبح عشرة أضعاف عدد وزراء أمريكا وروسيا وفرنسا وإنجلترا والهند والصين ! !

وعدد وكلاء الوزارة مائة ضعف ما كانت عليه الحال في أجيال السابقين وعدد السيارات الحكومية خمسين ضعف ما عرف المصريون في أعتى أيام التبذير والإسراف ! ! ....

ولست أدري لم حَبست الحكومة عن الشعب قصة الخزانة التي احتلت مكاناً فسيحاً من حجرة « الفتى المعجزة » الذي بوءوه وزارة الحربية قبيل حرب حزيران ، وفيها الملايين من العملات المحلية والصعبة ، يهدي منها الآلاف لهذا الصديق أو ذاك عند زواجه أو زواج واحد من بنيه ليقيم الأفراح والليالي الملاح ، أو يهب منها بالآلاف هذه الراقصة أو تلك ، أو يزود بها عضواً في التنظيم السري ليبددها في متعة حرام أو يبذرها على موائد القمار ! ....

لم تقل الحكومة للشعب ، إننا دعونا منذ قيام الثورة إلى سنة ١٩٧٠ مئات الوفود الرسمية والشعبية من بلاد الدنيا بلا سبب مفهوم أو داع معلوم ، وأن زيارات هذه الوفود كلفت مصر بالأرقام ملايين الملايين فقد كانت الهدايا تقدم لأعضاء هذه الوفود ، بسطاً وثلاجات وتليفزيونات وأثواباً من القماش الفاخر النادر ، وصواني الفضة من خان الخليلي ، وغيرها من منتجاتنا التي يسيل لها لعاب المواطنين المحرومين ، كل ذلك دعاية لمصر المضيافة وإعلاناً عن سفهها العظيم ! ...

لم تذكر الحكومة للشعب الذي نام في العسل أو نام في البصل ثمانية عشر عاماً ، أن ملايين صرفت لهذا الرجل في أندونيسيا أو الهند أو باكستان أو سيرانيكا . أو ذاك في فرنسا أو ألمانيا أو إنجلترا أو أمريكا أو كوبا ، ليكتب مقالاً في جريدته عن قيادة مصر الرشيدة ومنجزاتها العظيمة ، أو يكتب كتاباً يسفه فيه ماضي مصر وزعماءها السابقين ، ويؤكد أن بلداً عربياً قد خلقته ثورة ولم يكن له من قبل تاريخ ! ... ولم تذكر الحكومة أن الصرف قد تم لهؤلاء جميعاً بأوامر شفوية ، كما كان الحال في أيام الخديو اسماعيل حيث كانت الملايين تصرف بأمر « حنّاكي »[1] من ولي

(١) نسبة إلى الحنك أي الفم .

النعم ، ولم يكن وراء الأمر الحناكي قديماً أو الأمر الشفوي حديثاً أي رقيب أو حسيب !

ولم تذكر الحكومة للشعب أن العهد الذي سبق ثورة التصحيح قد بدد الملايين في شراء أدوات الإرهاب ، واستجلاب المدربين من فلول النازيين ، ومنحهم الرواتب الخيالية لتدريب عتاولة الظلم والطغيان على ألوان التعذيب التي يندى لذكر تفاصيلها الجبين ...

وأخفت الحكومة عن الشعب أن مشروعات فاشلة قد ابتلعت من ميزانية الدولة عشرات الملايين دون أن يعود على الوطن منها خير ، كمديرية التحرير التي لو استغل ما صرف عليها في ردم برك ومستنقعات وإحالتها إلى أراض صالحة للزراعة لأنتجت أكثر مما أنتجت مديرية التحرير إن كان ثمة إنتاج لها أثمر وأفاد !

ولم تفصح الحكومة عن فشل عشرات المصانع وعشرات الشركات ، وما ترتب على هذا الفشل من ضياع أموال الدولة نتيجة الإسراف والتسيب والفساد من نهب وسرقة وإهمال وتدمير وتحريق !

ولم تذكر الحكومة أنهم استولوا بالقسر وفي غيبة القانون على حدائق الناس وأراضيهم وعماراتهم ومصانعهم وتجاراتهم ، وأداروها بمعرفتهم حتى خسرت الملايين ، وكانت من قبل في أيدي أصحابها تدر الملايين !

ولم تذكر الحكومة للشعب أن ما صرف على هذا الذي حكيناه ، أو بعض ما حكيناه ، كان كفيلاً بتزويد كل قرية مصرية بنحو مليونين من الجنيهات ليتمتع الفلاحون بالماء النقي والكهرباء والشوارع المرصوفة والمشافي الكاملة والمدارس والمصانع الريفية وغير ذلك من ألوان الحضارة التي من شأنها أن تنقل ريفنا إلى وضع ينافس به ريف الإنجليز والفرنسيين والأمريكان .

وإذن فالحكومة مقصرة نحو نفسها ونحو وطنها ، ونحو التاريخ

الذي لا تخشاه الحكومات الديمقراطية ، ذلك لأنها حبست عن الناس تفاصيل هذه الجرائر والجرائم التي ارتكبت في عهود مضت حتى حطمت اقتصاد البلاد ووصلت بنا إلى ما نحن فيه من بلاء .

هل تريد الحكومة أن نقف وراءها ونشد على بطوننا ؟

إذن فلتكن منا وليست علينا ....

إذن فلا تحجب عن الشعب أسباب المآسي لتحمي ذكريات وحكومات وتصرفات وضح للشعب أنها أسوأ ما عرف في تاريخ مصر من ذكريات ، وأسوأ ما عرف في تاريخ مصر من حكومات ، وأسوأ ما ارتكب في تاريخ مصر من مهازل ومباذل ومنكرات ! ...

القاهرة في ١٧ يونيه

تسألني من الذي هرب الملايين من مصر إلى الخارج ؟

وتسألني من الذي أمر بتعذيب أحرار المواطنين ، وعلقهم على المشانق جماعات وأفراداً ، ودون محاكمة ؟

وتسألني من الذي حرم الصحفي النابه من الكتابة لأنه نقد مذيعة لا تحسن الإلقاء على شاشة التليفزيون ؟

وتسألني من الذي أمر باعتقال العمدة وتعذيبه حين جرؤ فأرسل برقية لوزارة الداخلية يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية ، ونسي « المجنون » أن رئاسة الجمهورية بالاستفتاء لا بالانتخاب ، وأن الاستفتاء كان وقفاً على واحد بالذات ؟

وتسألني من الذي كان يجلس الساعات يستمع إلى الشرائط المسجلة ، أو يجلس الساعات ليقرأ التقارير المفصلة وكلها عن خصوصيات المواطنين ، وتطلب مني أن أصور لك اللذة التي كان يحسها والمتعة التي كانت تغمره وهو ينصت أو يقرأ أسرار الناس صالحين وطالحين ؟

وتسألني من المسؤول عن قتل « فلان » بالسم و « علان » بالرصاص و « ترتان » بحادث في الطريق ؟

وتسألني من الذي أمر باعتقال سكرتير حزب الوفد حين نما إليه أنه ارتكب جريمة لا تغتفر إذ كان يجلس مع أصدقائه في أحد النوادي ويضحك ملء شدقيه ؟

وتسألني من الذي أمر باعتقال الأستاذ هنري باسيلي تاوضروس ووضعه تحت الحراسة لأنه ابن عم الأستاذ محمد محمود محمدين ! ولم يفرج عنه ويرد له ماله إلا بعد شهور قضاها في السجن سدد عنها بضعة آلاف من الجنيهات كمصاريف إقامة وتحية تقدير لمن استضافوه ؟ ! !

وتسألني من المسؤول عن هزيمة مصر في سنة ١٩٦٧ ؟

ثم تسألني مئات من الأسئلة الأخرى ؟ ! .

ما كنت أعلم أنك خبيث وداهية .. أتظن أنك تحرجني بالسؤال ؟

وهل هذه أسئلة يجيب عليها إنسان وإجاباتها على كل لسان ؟

سامحك الله ...

القاهرة في ١٣ يوليو

نشرت إحدى الصحف عندنا تحقيقاً رائعاً عن وزارة الخارجية ، وأعلنت أن الدولة في سبيلها إلى تغيير شامل من شأنه أن يحفظ على تلك الوزارة سمعتها ، ويرد عليها كرامتها بما يتفق مع جلال رسالتها ، ومع ما يجب أن تكون عليه السفارة المصرية بعد حرب أكتوبر العظيم .

ذكرت الصحيفة أن بعض السفراء لم يشغلوا الوظيفة سفراء لبلادهم بقدر ما كانوا سفراء لمراكز القوى ، لا شغل لهم إلا أن يلبوا مطالب هذه المراكز على حساب وطنهم وسمعته ، فإن في ذلك الضمان كل الضمان ليبقى السفراء في مراكزهم محصنين لا ينالهم أحد بسوء .

وإنك لتعجب إذا علمت أن بين السفراء ، أو كان بين السفراء واحد أو أكثر متهم بأشنع ما يتهم به رجل في سيرته ، ومع ذلك بقي هذا السفير أو ذاك في موقعه عاراً على السلك السياسي في سفارته ومضغة في أفواه سائر السفارات .

ولم يقتصر الفساد في السفارة على سفيرها وكرامته المهدرة ، ولكن أشنع ما يقال هو هذا العمل الذي تولته السفارات في التجسس والتلصص على المواطنين الذين يعملون في هذا البلد أو ذاك ، فقد كان الوسواس الخناس يملي عليهم كتابة التقارير في زيد أو عمرو ليتلقفه زبانية جهنم عند عودته ، فيأخذوه من الميناء أو المطار ، إلى حيث لا يعرف له مزار .

وقامت السفارات بوظيفة المباحث العامة والمخابرات ، إذ كان من مسؤوليات بعض العاملين فيها ، خطف المواطن من الخصوم ثم حقنه بمنوم معلوم ، ثم وضعه في صندوق يشحن في طائرة مصرية إلى حيث يفيق في سجن أو معتقل . وربما كانت جريرة الفتى رأياً أبداه في القاهرة أو صدر عنه في روما أو بيروت أو جنيف ... وبذلك أعادت بعض سفاراتنا سيرة ألمانيا في عهد هتلر وسيرة روسيا في عهد ستالين ، يوم كان

الطاغيان يتعقبان الخصوم في أي مكان ، فإن استطاع عملاؤهما اغتيالهم دون ضجة كان بها ، وإلا اختطفوهم ، وصدروهم مشحونين في باخرة أو طائرة إلى حيث الأفران في ألمانيا ، وإلى حيث الصقيع في سيبيريا ، أو إلى حيث لا يعرف لهم قرار .

وكم من فضيحة أساءت إلى نظام الحكم عندما فشل بعض موظفي سفاراتنا في خطف الخصوم والأعداء ؟ وقد حدث هذا في روما منذ تسع سنوات ، وكان لذلك أسوأ الأثر على علاقاتنا بالناس والحكومات .

ولم تبد سياسة إيثار « أهل الثقة » دون « أهل الخبرة » بالوظائف والمراكز واضحة قوية عارمة مثلما بدت في وزارة الخارجية ، وكانت الأمثلة صارخة على سوء الاختيار . فقد كانت وظائف القمة كالسفراء والوزراء المفوضين ، من نصيب الوساوسة الخنانسة ، القـارحين القادرين على تلبية حاجات المسؤولين من مشتروات تدخل إلى مصر بلا جمارك ، أو أشياء ثمينة تهرب من مصر بلا رقيب !

وكان من سوء الاختيار عند التوظيف والتعيين ، أن أهل الثقة كانوا من أنصاف المتعلمين ، وينقصهم العلم باللغات أيضاً . فإن كان واحد منهم على علم بلغة أو أكثر فهو علم التراجمة الذين تشتهر بهم في منطقة الأهرام نزلة السمّان، يتحدثون أكثر من لغة دون أن يكون في حديثهم رأي صائب أو قول مفيد ، ومن أين يجيء قول صائب أو رأي مفيد ، وحصيلة هؤلاء من العلم والمعرفة لا تعدو دراسات أولية لا تستر في حوار عالمي أو تثمر في مواجهة خصوم مصر وهم مردة في السياسة والكياسة وأساتذة في الاقتصاد ، ومحاضرون في الجامعات ، يناموّن على كتاب ويستيقظون على كتاب ...

وأنا لا أفرق في أهل الثقة . بين مدنيين وعسكريين ، بيد أن مسؤولية المدنيين في العجز والقصور أشد وأنكى . لأنهم على الأقل مهيئون نفسياً

للوظيفة الدبلوماسية التي تفرض رقة الحاشية في الجدل والحوار ، أما العسكريون سواء كانوا من ضباط الجيش أو الشرطة ، فليست الدبلوماسية ثوبهم ، لأن ثوبهم جاد وحازم ، وفيه من الضبط والربط ما يفرض الصلابة في أى جدل أو حوار . وهي ميزات للميدان ، وليست بميزات في السفارات على أي حال .

قد يكون عند غيرنا في العالم المتحضر سفراء عسكريون ، وقد يكون بينهم سفراء لامعون ، قادرون على أداء الوظيفة بلا تهيب أو اضطراب ، ولكنهم في وزارة الخارجية عندهم قلة محسوبة وليسوا قاعدة مفروضة ، وقد اختيروا سفراء لبلادهم لظروف خاصة تستدعي هذا الاختيار ، ولا تطول سفاراتهم عادة بعد أن تنتهي هذه الظروف ، فينتفي وجودهم ، ويخلو مكانهم لمن نُشئ للوظيفة وفهم سرها وتقاليدها ، وحبا إلى القمة من أول الدرج ، تدعمه الخبرة وكثرة التنقل من بلد لبلد ، وكل بلد في تاريخ الإنسان صفحة من كتاب .

ويعيبون على بعض السفراء من أهل الثقة أنهم تولوا وظائفهم وتنقلوا إلى أكثر من دولة وطال بقاؤهم في سفاراتهم ، ولم يبعث معظمهم بتقرير واحد عن الزراعة أو التجارة أو الصناعة أو غير ذلك من شؤون عن البلد الذي يمثل مصر فيه ، لعل مصر أن تستفيد من هذا التقرير الخطير ، وما كان ينتظر أن يصدر هذا الواجب عن هؤلاء السفراء كما يفعل سفراء الدول المتحضرة ، لأن ذلك يقتضي من السفير أن يشغل وظيفة السفير ! وسفراؤنا مشغولون بتحرير التقارير ضد زملائهم أو مواطنيهم ، وحتى هذه التقارير فيها من التفاهة الشيء الكثير ، وفيها من الأخطاء النحوية ما لا يفوت تصويبها صغار التلاميذ ، وفيها من العبارات السوقية ما يند عن أدب السفارات وأسلوب الدبلوماسيين ! ...

لقد قرأت تقرير الصحيفة منذ شهور ، وتوقعت مع سائر المواطنين

أن تطبق « الثورة الإدارية » أول ما تطبق في وزارة الخارجية ، ولكن الثورة الإدارية لم تبدأ بعد ، وما أظنها حين تبدأ ستترك هذا الفساد في وجهية مصر ، التي يجب أن يبدو وجهها بعد النصر مشرقاً وضاح الجبين .

إن أولي الأمر منا قد رأوا كيف نكبت بلادنا بمعظم أهل الثقة . وكيف انهارت مقومات حياتنا سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وأخلاقياً حين نحي النبهاء القادرون عن أمكنتهم الطبيعيـة ، واحتل هذه الأماكن المنافقون من العاجزين في كل وزارة وإدارة ومؤسسة وشركة ، حتى الجامعات والمناصب العلمية الرفيعة لم تخل من الإمّعات والمتخلفين ...

القاهرة في ٢٨ يوليو

أمضينا أياماً نحتفل بذكرى ثورتنا المجيدة التي قامت في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وكان الاحتفال بها في هذه السنة رائعاً ومشرقاً . ولم يكن مصنوعاً على النحو الذي دأبت الدولة على افتعاله . وخاصة في سنوات الهزيمة والعار . فقد كان قُرحاً منها حين أقامت أقواس النصر ونشرت أعلامه مرفرفة على دواوين الحكومة وأبنية المؤسسات وسط بحر من ثريات الكهرباء ، وملأت ساعات الإذاعة والتليفزيون بأغاني الحماسة وأناشيد الانتصار في وقت كان في كل بيت قلب مقروح حزناً على عاجز أو شهيد ، أو ممرور لغياب قريب أو حبيب في سجن مظلم أو معتقل بعيد ...

احتفل الناس في سعادة عارمة بثورتنا المجيدة هذا العام . فقد تحقق النصر بإذن الله . وجاءت أعلامنا مرفوعة حقاً . ولم يكن النصر العسكري وحده سبب هذه السعادة التي عمت الناس . كل الناس ، بل كان سببها انتصار الحكومة على نفسها في الطب لحياة هؤلاء الناس .

نعم ، انتصرت الحكومة على نفسها حين ألغت الحراسة وسلمت ضحاياها حقوقهم قدر طاقتها ، وانتصرت على نفسها حين أعادت إلى الوظائف معظم أصحابها وهي في سبيل رد سائر المظلومين إلى وظائفهم ، وانتصرت على نفسها حين أعطت للناس حرياتهم ولم يكن ذلك من قبل في حسابها ، فأصبح المصريون أحراراً في حلهم وترحالهم ، وانطلقت صحفهم تعبر عن مآسي الماضي ومتاعب الحاضر ، وتوجه وتنقد في عنف وشدة حتى بهرت الناس وتساءلوا كيف أصبحت صحافة السلطة سيفاً بتاراً تحسب له السلطة ألف حساب ، وكانت بالأمس القريب صحفاً صفراء لا تعرف إلا الحمد والتسبيح بصاحب السلطان ، ولو كان صاحب السلطان وسواساً خناساً أفسد ما في الصدور من خير وبر ، وصفّى منها الحب والرحمة وسلب منها المودة والحنان .

وقد استمعت من قبل للرئيس السادات وهو يخطب فينا عدة مرات ، ولعلك تعرف رأيي حين انتهى إليه السلطان ، فقد كنت متوجساً خيفة ، ولم تكن عندي بارقة من أمل في تغيير يرفع عنا البلاء الذي عشناه ثمانية عشر عاماً حتى أنست جبلتنا للحزن والأسى ، ورضيت نفوسنا الذلة والهوان ، وحولتنا المسيرة إلى قطيع من خراف ونعاج !

ولعلك تذكر رأيي فيه الذي سجلته في رسالة بعنوان « يوم العبير » في كتابي « رسائل من نفاقستان » وهو يوم عبور قواتنا لقناتنا ، وكانت هذه الانتفاضة محصلة سنوات وشهور لجهاد الرجل ، فإذا هو صادق مع نفسه ومع الناس ، وإذا هو يسير فينا سيرة المصلحين الصالحين ، لا يظلم ولا يفتري ، ولا يقول كلمة سوء فيمن سبقوه ، بل لعله أول الثوار يقول كلمة الحق في زعماء مصر السابقين ، ويذكر أياديهم في خدمة بلادهم ، وكان مجرد ذكرهم من قبل جريمة قد تصل بغير محاكمة إلى السجن أو الإعدام ، وكان أولئك الزعماء في مثواهم معتقلين نحو عشرين عاماً ! فأفرج عنهم بالذكر الحسن ، وأباح للكتاب أن يرووا تاريخهم ، وإذا بالجيل الناشئ يعرف لأول مرة سيرة الزعيم الخالد سعد زغلول وسيرة صفيه وخليفته مصطفى النحاس وغيرهما من الزعماء الأماجد المغاوير ، ويعرف أنه كان في السويداء رجال سودتهم نفوسهم ، وأعلت من أقدارهم المحن والأرزاء ، وعاشوا لمصر زعماء مخلصين ، وفي سبيلها ضحوا بمالهم وصحتهم ولم يلقوا بالعَلَم إلا حين نزل بهم القضاء .

وقد حدثنا الزعيم السادات حديثاً ممتعاً حلواً بمناسبة أعياد الثورة هذا العام ، وكان حديثه يفيض إيماناً بوطنه وبالمعاني الرفيعة التي حملتها معها الثورة يوم قامت ، وأفاض بأسلوب علمي في ذكر منجزاتها لمصر وآثارها عليها وعلى ما حولها من شعوب .

ولكن شيئاً استوقفني في خطاب الرئيس ولا أقول صدمني ! فربما

كان الخلاف بيني وبينه في ذكر من فجر ثورة يوليو خلافاً مرده إلى جهلي بخلفيات تلك الثورة وعلمه العميق بها ، فهو واحد ممن كانت أياديهم في العجين كما يقول العامة من المصريين ؟

غير أنني كمعاصر ، ومؤرخ ، أذكر أن شاباً من ضباط الجيش اسمه البكباشي محمد أنور السادات أذاع في صباح يوم مشرق جميل بياناً على لسان لواء من لواءات الجيش اسمه اللواء أركان حرب محمد نجيب ، وتضمن البيان ثورة على الأوضاع القائمة إذ ذاك ، ومطالب للجيش والشعب ، تحمس لها الجيش والشعب معاً ، وبذلك صعد إلى قمة التاريخ المصري إثنان : صاحب بيان عظيم أذاعه شاب شجاع في صباح يوم مشرق جميل .

وإذن ، فأنا وشعب مصر ، والعالم كله ، عرفنا أن ثورة ، أو حركة مباركة كما سموها أول الأمر ، قد قامت في القاهرة بزعامة رجل عسكري كان اسمه يتردد على الألسنة ويكتب في الصحف منذ عدة شهور بمناسبة معركة دخل فيها مع الملك وبطانته ، سميت معركة نادي الضباط الذي رشح لرئاسته محمد نجيب وآزره في الانتخاب أغلبية ساحقة من الضباط ، وأن الضابط الشاب الذي أذاع البيان على الشعب اتهم يوماً باغتيال واحد من رجال السياسة ، وسبق أن فصل من الجيش وحوكم أكثر من مرة ، وله مقالات في الصحف ونشاط سياسي معروف ، وله صلات عميقة بكثير من أحرار مصر ، كتاب وصحفيين .

ثم أخذت الصحف والإذاعات تنشر وتذيع في الأيام والأسابيع والشهور التالية أخبار زعيم الثورة محمد نجيب وبعض الضباط الآخرين الذين خرجوا بقواتهم في فجر ذلك اليوم المجيد ، واعتقلوا قادة الجيش من صنائع الملك ، ومكنوا للثورة من أن تقوم ، ولم يكن بين هؤلاء الشجعان واحد ممن تولوا شؤون مصر بعد حين ؟

وقرأنا في الأيام والأسابيع التالية ليوم ٢٣ يوليو١٩٥٢ قرارات ضخمة كعزل الملك وقانون الإصلاح الزراعي وإلغاء الأحزاب ، وغير ذلك من قرارات كانت مفرق طريق في تاريخ مصر وعليها توقيع زعيم الثورة اللواء أركان حرب محمد نجيب .

ثم ألغيت الملكية وأعلنت الجمهورية في مهرجان عظيم في ساحة عابدين وشهدنا قادة الجيش ، ومن بينهم قادة البحرية والطيران ، والشباب من ضباط الثورة يقسمون يمين الولاء للجمهورية ولرئيسها اللواء محمد نجيب !

ولم نعرف من أسماء ضباط الثورة أحداً حتى ألغيت الملكية وأعلنت الجمهورية وإذا بالأستاذ محمد حسنين هيكل يفاجئنا في مجلة آخر ساعة بحديث عن الرجل الثاني ، وقد نشر صورته إلى جانب الكلام ، فإذا هو البكباشي جمال عبد الناصر كما روى لنا هيكل وهو مؤرخ تاريخ صاحب هذا التاريخ العريض ...

وإذن فالبكباشي جمال عبد الناصر كما يقول هيكل كان الرجل الثاني في صف المجاهدين من الثوار ، فمن يكون الرجل الأول ؟ ... إنه اللواء محمد نجيب بلا نزاع أو جدال أو مجاملة للتاريخ ! .

ولقد كان محمد نجيب ثائراً على أوضاع الفساد منذ زمن بعيد ، وفي معركة مع الملك وحاشيته قبيل الثورة بعدة شهور ، ولا شك أنه سعد في تلك الأيام حين بدأ بينه وبين الضباط الأحرار هذا التجاوب في الرأي ، وهذا الارتباط في الهدف ، ولا شك أن سعادتهم بمحمد نجيب كانت عارمة حتى اعتبره عبد الحكيم عامر « لُقطة » جاءت من السماء وأيد هذا الرأي أنور السادات ، وكان على صلة قديمة بالرئيس محمد نجيب الذي كان له في تاريخ السادات تاريخ ، فقد برأ ساحته في محاكمة عسكرية دبرتها له بطانة الملك وحواريوه .

وإذا لم يكن محمد نجيب « أمراً » في تاريخ الثورة ، فكيف سمحوا بصوره تتصدر المجتمعات رسمية وشعبية بوصفه أول رئيس لجمهورية مصر ، وذلك لنحو سنتين تقريباً ، وسمحوا بتماثيله تباع في الشوارع والحوانيت ، ثم كيف ردوه إلى منصبه بعد الخلاف الذي وقع بينهم وبينه في مارس سنة ١٩٥٤ ، ولم يقاتل فيه محمد نجيب من أجل منصبه حتى لا تحترق مصر بحرب أهلية ، متأثراً في ذلك بقصة تلك الأم التي سلمت ابنها إلى من ادعت بنوته حين أفتى من استفتوه بشق الولد نصفين ، يكون لكل من المرأتين حق النصف فيه ! ..

ثم ماذا ؟

ذهبوا جميعاً بعد ذلك لمشاهدة فيلم « فيفازابطا » ووقفوا حوله بين جماهير المشاهدين للفيلم ، وأياديهم في يده إعلاناً عن ثقتهم برئاسته ، واعتذاراً عن تصرفهم في إقالته ، وتأييداً لمكانته من جديد كأول رئيس لجمهورية البلاد ...

قالوا : إن الرئيس محمد نجيب كان وجهية للثورة فقط ، وإن الثورة قد خطط لها الضباط الأحرار ولم يكن بينهم محمد نجيب ، وإنه وإن كان ضابطاً عظيماً وشجاعاً وجريئاً فلم يكن له إلا تنفيذ التخطيط وهذا كل نصيبه في التاريخ !

وأنا لا أرى مجافاة للتاريخ فيما ذكروا من تاريخ ، بيْد أن شيئاً خطيراً فات أصحاب الرأي الذين اعتبروا الرئيس محمد نجيب وجهية علقوها على الطريق !

إنه لولا محمد نجيب لتأخر تفجير الثورة على الأقل عشر سنوات ، لأن الشبان الطامحين الثائرين لم تكن لهم معركة ظاهرة مع الملك وبطانته ، بل كانوا يعملون تحت الأرض ! يطبعون المنشورات ويوزعونها بين وحدات الجيش ، ويمدون الصحف بالمعلومات ويزودونها بقصص الفساد ،

وفي هذا الميدان كان إلى جانبهم أحمد أبو الفتح في جريدة المصري يطبع المنشورات ، وإحسان عبد القدوس في روز اليوسف يكتب المقالات ، ولو اكتشف المخبأ لقضى على الثورة بالقضاء على هؤلاء الضباط ، فلما وجدوا « محمد نجيب » الذي يعرفه الشعب من قضية رئاسة نادي الضباط ، والذي يعرفه الجيش ويحترمه ويقدره كأستاذ لجيل ، وكرجل شهم ومحارب عظيم بدت كفايته في حرب فلسطين ، أعدوا معه للثورة يومها وساعتها ، وقام بتنفيذها القائمقامان يوسف صديق وأحمد شوقي اللذان استجابا للثورة ثقة في زعيمها اللواء ، وتولى الضابط أنور السادات الذي يعرفه الناس إذاعة بيان اللواء محمد نجيب !

وأنصت الشعب لكلمة قائد الجيش يلقيها شاب من أشجع شباب الجيش ، فاطمأن تماماً إلى أن قضيته في يد جماعة أمينة يعرفها وسمع عنها ، فخرج إلى الشوارع والميادين يهتف بحماس للجيش ولمحمد نجيب ...

ولا شك أن الثورة ما كان لها أن تتم قبل عشر سنوات ما لم يجد الثوار قائدهم « محمد نجيب » لأنه كان لا بد من الانتظار هذه السنوات حتى يصل منهم ضابط إلى رتبة اللواء ، وأن يكون له معركة مع الملك ، ويتمتع بصيت يشرفه ، واحترام يستمتع به في الجيش على جميع المستويات .

ولو لم يجد الثوار « محمد نجيب » وغامروا وحدهم في تلك الليلة . ما أنصت إليهم أحد ، ولربما دارت معركة رهيبة بين فرق الجيش . لأن حداثة سنهم والطبيعة البشرية التي كانت ستلعب دورها بالغيرة والحسد فيما بينهم وبين أقرانهم من رتبهم . كل ذلك كان من شأنه أن يمضي بالثورة إلى فشل محقق ، وإلى عواقب وخيمة لا يعرف إلا الله نتائجها من بلاء وتخريب .

ثم ماذا ؟ الرجل عاكف في بيته على القراءة ، يداعب قططه وكلابه كأي شيخ اعتزل الحياة . وقلما يزور أو يزار . رضي البال مطمئن النفس

إلى أنه الأب الروحي لجميع الثوار ...

إنه بالطبع يقرأ الصحف ويسمع الإذاعات ، ولا أدري إن كان يملك جهازاً للتليفزيون شاهد فيه احتفالات الثورة واستمع من خلاله إلى خطب الرئيس في أعيادها ، ولا أدري ما دار في قلبه حين رأى أو سمع أو قرأ ما دار في تلك الاحتفالات ؟

إني لمشفق على هذا القلب الكبير حين يشعر بالأسى لأن الوطن ضن عليه بكلمة حق عن مقامه في تاريخ هذه الثورة . التي إن لم يكن هو الذي فجرها ، فلا شك أن له نصيب الأسد في تفجيرها ... وإني لأرجو أن يطول به العمر فيسمع شهادة حق فيه وهو في عزلته ، وإني لأرجو أن تجيء هذه الشهادة من تلميذه وصفيه الرئيس أنور السادات الذي لم يبخل بكلمة صدق في سعد زغلول ، ولن يبخل بكلمة « عدل » في سيرة الرجل الذي أحبه وأنصفه في عهود الظلمات ، وأحبه الرئيس السادات وأنصفه ففك أساره من اعتقال دام سنوات ، ورد له حريته . تلك الحرية التي عرض لها الرجل عنقه يوماً لتكون قاعدة الحياة في بلادنا الوفية للأوفياء ....

إن التاريخ ـ ويا ويلتنا من التاريخ ـ سوف يسجل يوماً في وضوح ومن غير لبس ودون حرج ، قصة ثورتنا وقصة الشجعان الذين قادوا مسيرتها في فجرها علانية وبلا تهيب ، وقصة أولئك الذين كانوا وقوفاً من بعيد يتفرجون ، حتى إذا رأوا الشّص قد غمز ، والمسيرة قد وطئت ، والأمل قد تحقق . لبسوا ثياب الميدان ، وأقبلوا كأشجع الفرسان ، يقتسمون مع المجاهدين شرف الجهاد . ثم يستغلون طيبة الطيبين وسذاجة البسطاء فيطيحون بأصحاب البطولات . ويقولون نحن وحدنا صناع التاريخ . وللأسف الشديد صدقهم البلهاء .

سوف يُكتب التاريخ من جديد ....

أما بعد فلنقلها صريحة مدوية ....

إن ثورة يوليو لم يفجرها أحد ، لا محمد نجيب ولا عبد الناصر ولا السادات ....

إن الذي فجر ثورة يوليو هو هذا الشعب الذي خرج في حريق القاهرة بجميع هيئاته يهتف بالثورة على النظام . ويهتف بسقوط الملك والملكية ، ويهتف للعدالة والحرية ...

نعم . إن شعب مصر هو صاحب هذه الثورة ، وكل ثورة سبقتها .. ولولا موقف هذا الشعب ما ثار أحد بليل . وما لاح فجر جديد ...

أما بعد فقد حقق الشعب ثورته . وكان الجيش أداتها . ومهما يكن من أمر تلك الغلالة السوداء التي حجبت نور هذه الثورة سنوات بعد سنوات فإن فجرها قد عاد إليه نوره أنور مما بدأ وأكثر إشراقة مما كان ! ...

القاهرة في ١٠ أغسطس

جاءوا بصاحب البناء وقالوا له لقد انتهينا من تشييده .... رسمه لك مهندس ممتاز ، وتولى إقامته مقاول شهدت له الدنيا بالكفاية والذمة وخشية الله فيما يقوم به من أعمال ... وقد تولينا عنك تأجيره لثلاث فئات . فما رأيك فيما بذلنا من خدمات ؟ ! ...

وأسقط في يد صاحب البناء حين رأى النار تشع من عيني سائله الجبار ، غير أنه تشجع واعترض على الرسم والأساس ، وبين ما فيهما من أخطاء وأخطار . وحينئذ أبرز المارد سوطه وعصاه . ففضل الصمت المريب . وافترض المارد في صمت صاحب البناء أن ذلك منه الرضى كل الرضى بما تم من إشراف وتوجيه ! ...

وبعد شهور أو سنوات أحس المارد تصدعاً في البناء فعمد إلى ترميم الجوانب المصدعة وقال ... نجدد شبابه من جديد ! ...

ومضت شهور أو سنوات . وتصدع البناء مرة أخرى . فأصدر المارد أمراً بهدمه . وأقام على الأساس القديم نفس البناء . ولم يضف إليه جديداً إلا في لون النوافذ القاتم وهذا الضيق في الدهاليز ! ....

وجاء بعد المارد رجل تقي من الصالحين . له ذمة وعنده ضمير . فرأى جوانب أخرى من البناء قد تصدعت . ثم وجد بعض السكان قد طغى على البعض . ثم رأى الفساد بينهم قد استشري بشكل رهيب . ففكر ودبر . وانتهى إلى دعوة صاحب البناء . وعرض عليه الأمر فيما أصاب بناءه من تفسخ وما أحاط به من اضطراب ! ثم اقترح عليه هدمه وإشادته من جديد ، ونصح له أن يبقى الأساس على حاله تنهض عليه شقق جديدة أكثر تماسكاً وأشد صلابة لمواجهة الهزات والأعاصير .

وقال صاحب البناء : إن العيب ليس في البناء ولا في سكانه ، وإنما

العيب في الأساس الذي وضعناه ، والقاعدة التي قام عليها ، والطريقة التي بني بها ، وأن هدم الطوابق وتشييد غيرها سوف يرهق الأساس وهو في الأصل واه متداع مَوَّنوه بالغش والتدليس ، ولا يمكن أن يحتمل تشييد طوابق أخرى مهما عنينا بها ، ومهما زودناها بأفضل أنواع الأسمنت وأقوى أنواع الحديد ...

وقال الرجل التقي الصالح صاحب الذمة والضمير : إنه بناؤك فافعل به ما تريد ...

هذه هي قضية الاتحاد الاشتراكي مع شعب مصر كما بدأت في التاريخ ، وهذا ما انتهى إليه أمرها حتى ورقة التطوير ...

بدأ الاتحاد الاشتراكي بعد قليل من قيام الثورة تحت إسم « هيئة التحرير » وهي هيئة ركبت موج الثورة وأبدع أعضاؤها في تحقيق مآربهم وغاياتهم بنهم المحروم في جميع المجالات ، وأحس المسؤولون بغضب الجماهير فامتصوا غضبها بإنشاء « الاتحاد القومي » صورة مطابقة لهيئة التحرير ، ولم يكن « اتحاداً » « ولا قومياً » بل كان شيئاً أعتى من هيئة التحرير ، فرق بين الناس ، فقصر أعضاءه على هيئة المنتفعين ، وبقي « القوم » وهم كتلة الشعب تتفرج في حزن على حقل التجارب الجديد !

ثم جاءوا بالاتحاد الاشتراكي ، وقالوا إنه تحالف قوى الشعب العامل ، تحالف يبعد عنها النزاع الطبقي ، ويصل بمصر إلى بر الأمان ، ولفظ « تحالف » لفظ خطير ، لأن التحالف ، أي تحالف ، معرض للتصدع والانفصام وليس أبدياً كما علمنا الواقع والتاريخ .

وحين أنشئ الاتحاد الاشتراكي بدأ منجزاتة بعزل من أضير بالقوانين الاشتراكية عزلاً سياسياً ، بمفهوم أن من أضير لا يمكن أن يتجاوب مع فكرة الاشتراكية ، وهذا تفكير ساذج ، لأن كثيراً من زعماء الشيوعيين مثلاً كانوا في الأصل من ملاك الأرض وكان بعضهم من

الموسرين ، ولكنهم أصحاب عقيدة فباعوا أرضهم ووظفوا ثراءهم لنشر الشيوعية والتمكين لها في بلادهم وفي كل مكان .

وقالوا إن الاتحاد الاشتراكي تنظيم مفتوح لكل الشعب ، ولم يكن هذا صحيحاً ، فقد استبعدوا من عضويته كثيرين من المواطنين الأحرار الذين لا عيب فيهم إلا أنهم أحرار وأذكياء وقادرون ، وحتى من آمن بالنظام وله تاريخ في خدمته كان عرضة للاستبعاد عن مراكز القيادة ومنهم من نحوا عنها قسراً ، فأغلقت الدوائر الانتخابية على الأقارب والمحاسيب كما حدث في أكثر من دائرة انتخابية ، وكان أظهر حادث في هذا المجال حادث الصحفي النابه الذي سخر من مديرية التحرير ، فعوقب بقفل الدائرة الانتخابية على منافسه بطل مديرية التحرير !

وقالوا إن الاتحاد الاشتراكي بدأ قبيل النكسة وبعدها يأخذ مكانه في حياة أمتنا كقوة موجهة وضاغطة يعمل لها حساب ، وهذا غير صحيح ، فقد كان هذا الاتحاد عاجزاً عن أن يقوم بدور في مجريات الأمور ، وكان أكبر مدرسة لتنشئة المواطنين على الضعف والخنوع ، وأسوأ تنظيم في إفساد الذمم والأخلاق ، وأعمق بؤرة للكذب والتهريج !

وكانت القوة الضاغطة حقاً هي قوة طلاب الجامعات والمعاهد والمدارس التي خرجت بعد الهزيمة تهتف بسقوط الاتحاد الاشتراكي وصحفه وسياسته ، وهؤلاء الطلبة هم أبناء العمال والفلاحين ؟ ! ...

وقد بدا لي الاتحاد الاشتراكي بتنظيمه غير بعيد من نظم الشرق ، فهو محاولة ديمقراطية في وعاء شيوعي ، ومن هنا ظهرت فيه مراكز قوى لم تعمل للديمقراطية بقدر ما عملت للوعاء ، ولم تجاهد في سبيل مصر بقدر ما جاهدت في سبيل نشر مذهبها ، وهو مذهب لن يكون له مكان في مصر ما بقي الكون وبقي في الكون إنسان .

إن الاتحاد الاشتراكي مسؤول عن كل الكبائر والجرائر ، ففي ظله

هزمت مصر هزيمة منكرة سنة ١٩٦٧ ، وفي أحضانه ترعرعت السجون والمعتقلات ونزلها عشرات الألوف من الأحرار على اختلاف مذاهبهم السياسية والاجتماعية ، وبرعايته تسيب المال العام وانتشر النهب وتعددت السرقات ، وصوروا لنا ذلك كله في روايات عرضت في المسارح والسينمات !

وحتى مع وجود السادات ، وهو ضمان للعدالة والحريات ، لم تخل من الاتحاد الاشتراكي السلبيات ، ولفظ السلبيات بديل مهذب للفظ الفساد ، وقد طار صواب المستفيدين من هذا الاتحاد حين تكثف الهجوم عليه في لجان الاستماع من جميع الطبقات ، حتى اهتزت قوائم عرشه ، ووضح تماماً أنهم يحاربون من أجل وجودهم بالاستماتة في الدفاع عنه ، فإن في بقاء الاتحاد الاشتراكي ، استمراراً لعز لاحت نهايته ، وسلطة أوشكت على الزوال ، لذلك راحوا تحت السطح يبثون وسط العمال والفلاحين أخبث الروايات ، ويدفعونهم لمسيرة تهتف بسقوط الحرية كما فعلت مراكز القوى منذ سنوات وسنوات ؟ ...

يقولون إن الاتحاد الإشتراكي يجب أن يحافظ على « الأساس » فهو يقوم على تحالف قوى الشعب العاملة ، العمال والفلاحين والمتعلمين الذين يسمونهم المثقفين ، وبذلك تنتفي ـ كما يقولون ـ الحزبية فيه !

وأقول إن هذا « الأساس » هو « أساس » الحزب الواحد ، وهو حزب صدر بتكوينه مرسوم وقد طور من قبل بمرسوم إثر مرسوم ، فهو في ضمير الشعب حزب الحكومة ولن يشفع في نفي هذه الصفة عنه تعدد المنابر داخله ، فكل حزب تتعدد المنابر فيه ، وليست في هذا الحزب فلسفة حتى نتعلق بها ، ودعواه بتمثيل العمال والفلاحين غير صحيح ، لأن العمال والفلاحين هم مصر كلها ، والمثقفون من أبنائها هم إما أبناء عمال أو أبناء فلاحين .

ولا يمنع تعدد المنابر في حزب من إنشاء حزب أو أكثر ، وقد كانت إنجلترا في أول سيرتها السياسية تعرف جبهة واحدة دخلت في معركة مع الملكية ، فلما انتصرت لم يطل الزمن بالبلاد حتى سيطر على مقدراتها حزبان ، حزب الأحرار وحزب المحافظين ، ومضى الحزبان يتناوبان الحكم عدة قرون ، حتى ثارت بعض المنابر فيهما ، فخرجت على الحزبين وكونت حزباً جديداً هو حزب العمال ، وإلى جانبه نشأت أحزاب أخرى ولم يشك أحد سوء المصير ...

وفي مصر نشأت جبهة وطنية من العمال والفلاحين والمتعلمين ومن يسمونهم الإقطاعيين عند قيام الثورة في سنة ١٩١٩ ، ومثلت هذه الجبهة حزباً وطنياً اسمه « الوفد المصري » تعددت المنابر فيه ، وضاقت بعض المنابر بسياسة الحزب ، فخرجت عليه وكونت حزباً جديداً اسمه حزب الأحرار الدستوريين . وتجمع فيه خليط من أصحاب الثراء الفاحش والمحافظين كشيخ الأزهر إلى الشيوعيين كمحمود عزمي ، الثائر على كل تقليد وصاحب جواز السفر الذي سجل فيه أنه مصري بلا دين !

وثار منبر آخر من منابر الوفد المصري وخرج عليه ، وكون حزباً ثالثاً اسمه حزب السعديين ، وهو أيضاً حزب محافظ وإن كان فيه منبر متطرف طالب بالإصلاح الزراعي وتحديد ملكية الأرض بخمسين فداناً وهو ما نفذته الثورة بعد أكثر من عشر سنين ! وخرج على الوفد أيضاً جناح آخر سمي حزب الكتلة الوفدية يتزعمه سكرتير الوفد مكرم عبيد .

وتعددت الأحزاب في مصر ، فألف أحمد حسين حزب الاشتراكيين ومثل حزب الاتحاد ثم الشعب ، الملك ومن يجري في فلكه من النفعيين .

وبقي حزب الوفد حزب الأغلبية الساحقة من المواطنين ، وتعددت فيه المنابر ، ولم يخرج عليه بعد ذلك أحد ، لأن الحزب بالطبع والنشأة وبأغلبيته المكونه من العمال والفلاحين ، كان اشتراكياً متجاوباً مع كل

جديد ، وحكومته أول حكومة جعلت حق التعليم للمواطن كحقه في الماء والهواء ، وكان ذلك قبل قيام الثورة بسنتين ! ...

ومهما يكن من أمر هذه الأحزاب ، فإن مصر أفادت كثيراً من خلاف الرأي بينها بما تم من منجزات لا ينكرها إلا باغ أو حاقد موتور ، ولولا وجود الملك والإنجليز ، لتحقق من اصطراعها خير كثير ، ولا شك أن أحزاباً في مصر اليوم لن يفيد منها إلا الشعب فهو إن وعى ، أحسن اختيار ممثليه ، وبذلك ينجو من مآسي الحزب الواحد ، أو ديكتاتورية الفرد ، أو الحكم العسكري ، وكلها نظم ، العدل فيها مفقود ، والحرية موءودة ، وطابعها الطغيان ممثلاً في المعتقلات والسجون !

لقد شكا الرئيس السادات من سلبيات الاتحاد الاشتراكي مع أنه رئيسه ، لذلك طرح ورقة لتطويره ، وعندي أن قضية هذا الاتحاد قضية فرعية ، والقضية الأساسية هي نظام الحكم ، وهي التي يجب أن تطرح وتناقش على أوسع نطاق ....

وما أظن مصرياً واحداً يفكر في غير النظام الجمهوري ، وإن فكر البعض هل يكون رئاسياً كما هي الحال في الولايات المتحدة الأمريكية ؟ أو يكون على غرار ما في إيطاليا وغيرها من بلدان ؟

ويجب أن نعدل الدستور فنحذف القيد الخاص بإنشاء الأحزاب ، والقيد الخاص برئيس الجمهورية فيكون اختياره بالانتخاب لا بالاستفتاء ، ونجعل النص على المسئولية الوزارية شاملاً لمجلس الوزراء والوزراء معاً ؟ ونحرم انتخاب الموظفين العموميين لمجلس الشعب حتى لا نرى هذا التناقض العجيب بين الموظف المسؤول أمام الوزير في الصباح ، ثم هذا الوزير المسؤول أمام هذا الموظف في المساء ؟ ثم تحذف بقية المتناقضات من صلب الدستور حتى ينقّى من الشوائب والعورات ، ويستكمل بهاءه وحتى يصبح أفضل الدساتير التي شهدتها البلاد .

أما عن قضية الأحزاب ، فلست أدري لم لا تقوم في البلاد أحزاب ؟ إن حزباً منها لن يكون إلا من العمال والفلاحين والمثقفين ، فهم أعضاؤه وهم المنتخبون على أي حال .

إلى متى نصنع ما يصنع النعام ؟

إن الصحف المتداولة في مصر صحف حزبية ، وضحت صفتها بعد إطلاق حرية الصحافة وضوحاً لا شك فيه .

إن جريدة الجمهورية تمثل اليسار ويجري في فلكها مجلة أو مجلات ، وجريدة الأخبار تمثل اليمين ، وهي أيضاً يجري في تيارها عدة مجلات ، وبين الجريدتين تقف جريدة الأهرام ممثلة للوسط بالرغم من انحراف محرريها إلى مذهب اليسار .

ومن عجب أن يُسمح للصحف بالتحزب لمذهب أو مبدأ ويحرم الشعب من تنويع الأفكار في أحزاب ؟

لقد انقلبت الآية ... القاعدة أن يكون لكل حزب صحيفة ومجلات فإذا الأمر في مصر عجب ! لكل صحيفة حزب ! ! ثم يقولون لم يحن الوقت بعد للتحزب والأحزاب ...

إن شعبنا قد فطم سياسياً منذ خمسين عاماً ، وليس من المعقول أن يبقى بعد هذه السنوات في اللفة والقماط ! ...

إن وجود الأحزاب هو الضمان الوحيد لحرية القول والقلم ، وإن وجد في الأحزاب شر فلا يقاس هذا الشر أبداً بالشر الذي يتفشى بغيابها من حياة البلاد ، وإن أعظم الأمم حضارة ونجاحاً وتقدماً وسعادة تلك التي تستمتع بحرياتها متمثلة في أحزابها وصحف تلك الأحزاب ، وكل بلد لا يعرف الأحزاب لا يعرف إلا الكبت والعسف والطغيان ، والأمثلة على ذلك لا تحتاج إلى بيان .

وإذن فلا بأس من أن يكون في مصر على الأقل حزبان : لقد صورنا لجيل الثورة أن الأحزاب مفسدة أي مفسدة ، وأنها أس البلاء وزعمنا في أسباب الحكم عليها أنها كانت دمية في يد الملك أو كرة في قدم الاستعمار ، واليوم وقد ألغيت الملكية واختفى الاستعمار فما هي الحيثيات الجديدة في حرمان البلاد من الأحزاب ؟

إن كل هذه الأحزاب ، سواء كان عددها اثنين أو أكثر ، سوف تتكون من تحالف قوى الشعب العاملة ، وهو الشعب الذي سيدلي بصوته في الاختيار بعد أن يميز بين برامج الأحزاب .

إن أجمل ما في ورقة التطوير هو دعوة الرئيس إلى إعفاء الناس من فرض الانتماء غصباً عنهم إلى عضوية الاتحاد الاشتراكي الذي أذلت عضويته أعناق الرجال بصكوك الغفران التي كان يمنحها لمن يحب ويمنعها عمن يكره ، وقسم الشعب بذلك إلى طبقتين ، إحداهما تسود بعضويته على جهلها وسوء تدبيرها وفساد رأيها ، والثانية محرومة من هذه العضوية ، ممنوعة من حقها في ممارسة الحياة السياسية بالرغم مما يستمتع به رجالها من شمم وإباء وكفاية نادرة المثال .

إن الاتحاد الاشتراكي ببيروقراطيته ونظمه الفاسدة حرم كثيراً من الكفايات وأصحاب الأفكار المنيرة المستنيرة من حقها في الترشيح للانتخابات ، سواء كانت لمجلس الشعب أو لهيئة من الهيئات ، كما حرم هذه الفئة العفة الأبية النظيفة من ولاية وظائف القمة ، وبذلك اعتدى ذوو الجهالة على قدسية الدستور الذي لم يحرم مواطناً من حقوقه الدستورية ومزاولة نشاطه في المسائل العامة ما لم يصدر في حقه حكم يؤثمه في خلقه أو ذمته ويفرض عزله عن دوره الجدير به سواء في التماس الحقوق أو أداء الواجبات .

وإذن فالاتحاد الاشتراكي تجربة مريضة لم يعد ينفع فيها طب أو

دواء ، وهو على أي حال جزئية في نظام الحكم ، تمثل الحاكم ولا يمكن بحال أن تمثل المحكوم ، إنها شيء شبيه بحزب الاتحاد الذي أنشأه الملك فؤاد وضم إليه بذهب المعز وسيفه العمد والأعيان .

إن تحرر المواطنين من فرض الانتماء إلى الاتحاد الاشتراكي ورفع القيود عن المعزولين سياسياً ، تقتضي حل مجلس الشعب فوراً وحل جميع المؤسسات الدستورية في البلاد ، وإجراء انتخابات جديدة يكون لجميع المصريين حق التصويت فيها وحق الترشيح لها .

ولينشأ في البلاد حزبان أو أكثر ...

وللشعب وحده أن يختار ....

والرأي عندي أن يستقيل رئيس الجمهورية أيضاً تجاوباً مع هذا المناخ الذي خلقه هو بهذا التصور الرفيع لمعنى الحرية والمساواة ، على أن يرشح نفسه للانتخاب لا للاستفتاء ، وعلى أن يكون مرشحاً بعيداً عن الأحزاب فهو أب للمصريين جميعاً ، وما ينبغي أن يؤثر الأب أحداً على أحد من الأبناء .

وسوف يعود السادات هذه المرة إلى موقعه ، تسنده أغلبية الشعب الذي أحبه ، لأنه رد له كرامته بشجاعة قراره في حرب رمضان ، ورد له آدميته بالقضاء على مراكز البغي والطغيان ، ورد له حريته بإطلاق حرية القلم ليوجه أصحابه وطنهم إلى الخير ويبصروه بما يثمر ويفيد ، ثم رد للناس حقوقهم المادية التي اغتصبها الوساوسة الخنانسة في غفلة من القانون وفي لحظة ضعف أصابت الشعب الطيب وطالت سنين ، وساس الأمور في المنطقة بحصافة العقلاء وذكاء الدهاة القادرين ، وحول خصوم بلادنا إلى أصدقاء ، ورتب للغد مسيرة يمن ، وهيأ للحاضر مناخ هدوء واستقرار ، وأنسانا بكل هذا ذكريات الماضي بحشفه وسوء كيله !

نعم . سوف يكون السادات أول من يجلس في تاريخ مصر على منصة الحكم بطريق الانتخاب ، وسوف يخط بذلك قصة أول فلاح يحكمها وهي أمنية كان يحلم بها أصحاب الجلاليب الزرق وهم الأكثرية الساحقة في البلاد ! ...

* * *

مطابع الشروق ـ بيروت
ص. ب. : ٨٠٦٤ ـ ت ٣١٥٨٥٩

هذا الكتاب

● نفدت سريعاً طبعتاه الأوليان . . وحالت أزمة الورق دون إعادة طبعه تلبية للطلب الكبير المتزايد عليه .

● فعرضت دار الشروق أن تستضيف المؤلف — الذي هو أيضاً زميل — وتصدر له سريعاً هذه الطبعة الثالثة من مطابعها في بيروت . . بدلاً من الانتظار حتى تصدر عن مؤسسته الزاهرة . . سجل العرب بالقاهرة .

● ولم يكن حق الزمالة هو وحده الباعث على هذا العرض من دار الشروق . . بل إن الكتاب نفسه — مضموناً وأسلوباً — لمما يسر دار الشروق أن تقدمه بين المجموعة التي تصدرها حالياً . . والتي تتناول تجربتنا الثورية الاشتراكية بالمناقشة والتحليل والتقييم . . تصويباً لها ، ودفعاً لمسيرتنا إلى الاتجاه الصائب السليم .

● والأستاذ الدكتور ابرهيم عبده كاتب قدير وأستاذ رائد في فنون الصحافة . . فلا غرو إذا ما شد القارىء شداً من أول سطر إلى آخر سطر في الكتاب . . وهو ينتقل به من وضع إلى آخر مما آلت إليه أوضاع لنا في الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٧٠ !

● ففي تجرّد واقتدار . . يناقش .
وفي سخرية جادة . . يقارن .
وفي غيرة وإخلاص . . يقترح العلاج . . كل العلاج . . لا نصفه . . ولا بعضه . . كما حدث في بعض الأوضاع !

● إن كتاب الوسواس الخناس الذي يسعدني تقديم طبعته الثالثة هذه : شائق وممتع لفن الكتابة . . والحوار . . والأدب السياسي .

٥٠ قرشاً

